الجَاخُور

رواية

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخليوي، عبد الجبار
الجَاخُور : رواية / عبد الجبار الخليوي
ط2- القاهرة: دار النشر للجامعات، 2018.
232 ص؛ 20 سم.
تدمك: 7 14 6515 977 978
1- القصص العربية
أ- العنوان 813

تاريخ الإصدار: 1439هـ - 2018م

حقوق الطبع: محفوظة

الطبعة: الثانية 2018م

رقم الإيداع: 20198/ 2015م

الترقيم الدولي: ISBN: 978 – 977 – 6515 – 14 –7

الكود: 3 /486

تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

الوادي
للثقافة والإعلام
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
E-mail: darannshr@hotmail.com

الجَاخُور

رواية

عبد الجبار الخليوي

إن بعض الشخوص والأحداث في هذه الرواية من نسج الخيال، ما لم نذكر أسماء صريحة، فإن صادف وجود أي تشابه بينها وبين سيرة أشخاص حقيقيين - سواء من حيث التسمية أو السلوك أو الأفعال - فإنها محض مصادفة لا غير..

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف:4]

الإهداء

أهدي هذه الرواية الجديدة لكل من وقف معي وشجعني في روايتي الأولى (التكية)، وكل من جعلني أكتشف نفسي من جديد لأطلق روايتي الثانية (الجَاخُور)، التي أتمنى أن تكون ذات نبض أدبي وإجتماعي مميّز تليق بكم وبي، وأن تنال رضاكم وإعجابكم.

عبدالجبار الخليوي

تفسير الأحلام

في ليلةٍ من ليالي القيظ المستعرة في درجة حرارتها، وسكان جنوب العراق – على وجه العموم اعتادوا على تسمية مثل أجواء هذه الأيام الشديدة الحرارة والمحمَّلة بالرطوبة الثقيلة (طبَّاخة الرِّطب)، لم تكن أجهزة التبريد شائعة الاستعمال في البيوتات ولا في المحلات، والقلة من النَّاس من لديه المَرواح السقفية أو الأرضية، بعضها تئن وتون لقدمها؛ لذا فهم اعتادوا النوم فوق سطوح المنازل في أيام القيظ؛ لينعموا بكرم هواء الطبيعة المنعش قليلًا، خصوصًا إذا هبت رياحٌ شمالية خفيفة، بعضهم اتخذ من أسرة الحديد (الچرابي) فُرشًا لهم، وآخرون فرشوا (الدواشگ) والحصران (الخوصيِّة والچولانيِّة) على وجه السطح المفروش بالطابوق .. لقد تعودت الأمهات وبناتهن على مسؤولية فرش هذه المراقد الصيَّفية في أوقات المساء، وقبيل أذان المغرب، ومن فوق السطوح تدور الأحاديث والحكايات بين بنات الجيران عبر الجدران المتلاصقة ..

والليالي المظلمة في هذه السطوح لا يكشف ستر عورتها غير ضوء القمر المتلصص عليهم بنوره الفضي الساحر، الذي يطل عليهم من بين قطيع غُويمات (الطباخة) المتناثرة، وبصيص من النور المتعاضد ما بين النجمات المبعثرة في قبة السماء؛ ليشنوا حربًا ضوئيةً على رقعة الظلام الدامس، وبين فترة وأخرى يتسامرون في فرشهم .. يتفرجون على مهرجان سقوط الشُهب من سقف السماء بعد أن يئست في الحفاظ على مواقعها الكونية في سماء الدنيا، وكل من يُشاهد سقوطها يتساءل: إلى أين تذهب هذه الشُهب المتساقطة في نهاية مهرجانها؟ وفي أي سماء تسقط؟ وأي أرض تبتلعها؟ وكلما هوى شهاب قالت لهم جدتهم: نجمٌ دوى على رأس فرعون، فاللعنة تلحق فرعون بالتوارث إلى يوم القيامة ..

ومن المعتاد أن يمر فوقهم قمر اصَّطناعي بضوئه، مسرعًا في تحقيق هدفه وإنجاز مهمته، وتسمع صوت بعض أطفالهم يتنافسون بِعدّ النجوم اللامعة في السماء، أيهم يعدُّ أكثر من الآخر، ثمَّ سرعان ما يتذكروا تحذير جدتهم في خطورة عدها .. إنَّها لقنتهم درسًا منذ بداية وعيهم للحياة، وقالت لهم: إن في عد نجوم السماء سببٌ لظهور الثآليل في جسم الإنسان، وخصوصًا انتشارها في اليدين، ومثل أولئك الجدات وبناتهن أغلظن على أحفادهن وأبنائهن في مشاريع التهديِّد والتخويِّف؛ خوفًا عليهم من طوارق الليِّل والنهار .. لقد حدثوهم عن كثير من القصص التُراثية الخُرافية المُخيفة، والمنتشرة بالتواتر في مجتمعهم الصَّغير، التي لا يمكن أن

يُصدقها العقل البشري، ولكنها روايات مُتوارثة وتناقلتها الأجيال، جيل عن جيل بأسماء متشابهة، رغم أن معظمها لا يرتقي لصحة خبر الحكاية، مثل تشابه روايتها عند أفراد المجتمع، ومن أشهر قَصَصِهِن الخُرافية الكثيرة التي ابتلعت شجاعة الأطفال بسهولةٍ، سيرة (حمارة القايلة)، التي وصفوا لهم بشاعة صورتها بالتفصيل، خصوصًا حين تسكعها بين (السكيك)، تنتظر خروج الأطفال من منازلهم في (حزة القايلة)، ووصفوا لهم صورًا مرعبة من حياة البطل (عبد السلة) وأسطورة زمانه السيد (الطنَّطل) وبشاعته .. لقد أيقظت هذه الصور الخرافية حاسة الخوف مبكرًا عند الأطفال، حتى أصبح بعضهم يخاف الأماكن شبه المظلمة، لدرجة أنَّه لا يستطيع أن يذهب بمفرده في الليل لدورة المياه، مضطرًّا أن يطلب من أمه أو أخته الكبيرة مرافقته لقضاء حاجته، وأثرت على بعضهم فأصبح يخشى الوحدة ويفرُّ منها، وكل ظنّه وتوقعه بأن أحد هذه الرموز المخيفة تغتاله على حين غفلة ..

وقُبيل أذان الفجر وقبل سماع صوت المؤذن في (الصلاةِ خير من النوم)، وقبل صوت ديك الحجيِّة ومهرجان ديكة الجيران في معزوفاتهم الفجريَّة، كما اعتادوا عليها بمشاغبة لحظات الظلام والهدوء بأصواتهم المتوالية المزعجة - أيقظه حلمٌ مفزعٌ، غرابته أنه تكرر مرات عدة، وبالمشاهد والتفاصيل نفسها، وفي أماكن متفرقة، وفي أوقات متباعدة عن بعضها البعض .. فاستغرب (عزُّوز) كثيرًا تكراره!!

أخذ الحُلمُ مساحة كبيرة من تفكير عزُّوز، واقتطع من ساعات يومه، وخصوصًا في أوقات ليله الطويل .. هو يعلم تمامًا بأنَّ تاريخ عائلته لا يُشير إلى أية دلائل أو ملامح للثراء، يسأل نفسه، وينبش في مخزون ذاكرته عن مثل هذه التفاصيل، ويعلم بأنَّ جده الأول عبد العزيز، المهاجر من نجد، جاء للزبير بحثًا عن فرصة عمل فيها .. لم يكن من الأغنياء الذين يملكون أموالًا، ولكن آيات القرآن الكريم في سورة الكهف، التي يتلوها في بعض أيام الجُمع تدفعه بعنفٍ للبحث عن هذا الكنز، وهو يستحضر شخصية جده، وما تناقلته النَّاس عن ورعه وصلاحه واستقامته وتقواه، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:82].

كيف يتم مثل هذا التكرار؟ لا .. لا بد أنَّ في الأمر سرًّا !! فليس من المعقول أن يتكرر حلمه بهذه الدقة من التفاصيل !! عليه أن يقرأ في كُتب تفسير الأحلام، وأول ما تبادر إلى ذهنه المفسر ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتابه تفسير الأحلام الكبير؛ لعله يرشده لتفسير حلمه الذي أرهقه، وانفرد عزُّوز بكتابه الذي استعاره من مكتبة الزبير الأهلية لعدة أيام، وقرأ الكتاب من جلدةٍ لجلدةٍ، واستوعب ما فيه من شروح وتفسير لرؤى وأحلام شاع تداولها في ذلك العصر، واستغرب كثيرًا من عبقرية هذا الرجل، الذي

حطت في عقله تلك المَلكة والموهبة الربانية، فهو يُفسر وكأنه يقرأ من مشكاة سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد مَنَّ الله عليه من نور البصيرة، رغم أنَّ ابن سيرين لم يتوصل لفك شفرة حلم عزُّوز، ولم يجد بين صفحات كتابه معيارًا مشابهًا يزن فيه شخصية رؤياه، كان حلمه صعبًا على فكر كتاب تفسير ابن سيرين وغيره من كتب التفسير الكثيرة، التي انتشرت أيام العصر الذهبي للفكر الإسلامي ..

عاش عزُّوز في مجتمعه الذي له موروثاته الخاصة بمعتقداته فيما يخص الرؤى والأحلام كباقي المجتمعات الإسلامية المتمسكة في منهج عقيدة التوحيد، ولهذا كانت سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بين صفحات القرآن الكريم ماثلةٌ أمامهم؛ حفظًا وتفسيرًا، شاخصةٌ بكل تفاصيلها عند الخاصة والعامة من المجتمع، منذ بداية انطلاقها حتى نهاية ختامها، تقذف بثمار دروسها التربوية في قلوبهم كل حين ..

ولا زال عزُّوز يذكر حُلم صديقه سليِّم، الذي حدْثه عنه كثيرًا قبل وقوعه في بغداد، وكيف شاهد دقة تفاصيل حكايته بأمِّ عينه، حلم سليِّم الذي سمع بخبر تفاصيله القريب والبعيد، الذي رواه له سليِّم عدة مرات، كحلمٍ قبل وقوع أحداثه، لكن عزُّوزًا كان يرد عليه باستهزاء وسخرية:

- أنت تعيش أحلام وردية يا سليِّم، تحلم بعشق مستحيل أن يحدث، تحلم بقصة حبٍّ هي من سابع المستحيلات تكون!!

المُلَّا إبراهيم

استمر عزُّوز في البحث عن مخرج لتفسير حلمه بعد أن فقد الأمل في صفحات كتب التفسير، التي أشبعها بحثًا وتنقيبًا، فقرر أن يستشير (المُلَّا إبراهيم) صاحب الورع والتقوى، إمام المسجد القريب من بيت أهله في منطقة الحصي؛ فالمُلَّا إبراهيم محل ثقة في مجتمعه، وله منزلة رفيعة في القلوب، يأتمنون عنده أسرارهم وعلاقاتهم الاجتماعية الخاصة، الرجل الذي حباه الله محبة النَّاس ومحبته لهم، ساق الله على يديه – ببركة إخلاصه في الدعاء – شفاء بعض المرضى الذين يطلبون رقيته الشرعيِّة، ممن أصيب منهم بأمراض جسدية أو نفسية، ويذكر عزُّوز جيدًا تلك المعجزة الربانية التي شاهدها بنفسه على يديه، عندما كانوا يحملون بين أيديهم صاحبهم لمنزله .. كان المسكين يصرخ من شدة ألمه بأعلى صوته، كالوحش الهائج، ويبكي بكاءً مريرًا لم يشعر في حياته مثله، يبكي من أقصى قلبه كالطفل الجائع الذي تحاول أمه إسكاته بأية طريقة في أيام فطامه، لا ينفع معه أيَّ تهدئة مهما كان نوعها، لا يسكته غير ذلك الحليب الدافئ الذي تعود عليه، المتدفق من صدر أمه بحنان .. دموعه تدافعت كسيلٍ عارمٍ، يكتسح ما

أمامه من نتوءات منتشرة على خديه من أثر حَبْ الشباب؛ لتكون شاهدة على بشاعة حربها ضد ذلك الجيل الذي لم يعرف المضادات الحيوية والمستحضرات الطبية لعلاجها ..

لم يكفه البكاء من لسانه ومن عينيه، بل بالغ في بكائه كثيرًا، فانتقل ألمه إلى سائر أعضاء جسده .. يبكي من رجليه بحركاتٍ جنونيةٍ غير معتادة منه!!

عزُّوز يعرف صاحبهم جيدًا .. ذو بأس شديد، وصاحب قوة تَحمل، وليس به أي مسٍّ من الجنون والصرع .. شاهده يبكي من ألم في يده، مركزًا في بكائه على يده اليمنى، يرفعها للأعلى ثم يقذف بها على بطنه وصدره دون شعور، كأنه يُحاكي – في حركات يديه – بعض الفرق ..

كانوا مجموعة من الشباب اعتادوا الجلوس في حديقة العراص بطرف المدينة من جهتها الشرقية، لساعات متأخرة من ليالي أيام الصيف، تجمعهم حكايات كثيرة ومتنوعة، وقاسمهم المشترك الأعظم فيها حكايات الثقافة بصورة عامة، وحديث ذكريات كليات الجامعة التي لا تنتهي مطلقًا .. هؤلاء الشباب يعلمون داءه وما أصابه، ولكنهم لا يستطيعون وصف دوائه، فحملوه بين أيديهم، وطرقوا الباب بكلِ قوةٍ وقسوةٍ؛ من مطرقة الباب بدايةً، وفيما بعد طرقوه من كل موضعٍ فيه، بأيديهم وأرجلهم، كان الوقت متأخرًا جدًّا من الليل، وكان طَرقهم على الباب مزعجًا لمن هم في

الداخل، وقد أسدل الظلام خيمته بإحكام، وعسعس في كل زوايا المكان، حتى ظِلهم لا يستطيعون رؤيته من شدة الظلام الحالك في تلك (السكة) الضيقة .. كانت العتمة تقضي على أي مشروع للرؤية الواضحة، فردت عليهم عجوز من خلف الباب بعد طول انتظار، هم يعرفونها جيدًا من صوتها، إنها الحجيِّة، قالت والنوم يثقل أطراف لسانها ويتلاعب بحروف كلماتها:

- منهو بالباب؟

وكلهم تسابقوا للرد بسرعة البرق:

- (أنا) (أنا) (أنا) ..

مسكينة الحجيِّة لم تستطع أن تُميِّز من هذا الطارق، الذي يُدعى بـ (أنا)، لكن أحدهم فطن وانتبه واجتهد وجمع شتات حروفه المُبعثرة، وأخرج لسانه من فمه، وقال:

- وين الحجي؟

- نايم تبون أگعده؟

- إيه يزاج الله خير

صاحبهم زاد جنونه، ولا يدري ماذا يفعل بهذا الألم العُضال الذي ألمَّ به، واخترق حدود طاقة صبره ومساحة صموده ومقاومة رجولته

وفحولته، التي كان يتغنى ويُفاخر بها أمام أصحابه، فجمعوا عزيمة قواهم، وطلبوا منه أن يذكر الله ويصلي على النبي المختار ..

بعد برهة من الوقت أطل عليهم الحجي بثوب نومه الصيفي (المَلمل)، بصلعته المكتمل بدرها، بلحيته الفضية المائل لونها للملح، وبابتسامته المعهودة التي أضاءت ما حوله من ظلام .. طل عليهم وهو ينظر إليهم بتلك العينين العسليتين الجميلتين؛ كي يتفقد من هم زواره هذه الليلة!! وكم هو يخشى زوار مثل هذه الأوقات، والعرب كلهم يخشون زوار آخر الليل، وللمُلَّا معهم حكايات كثيرة ومريرة، ويذكر جيدًا عندما هجموا على مكتبته الخاصة الصغيرة، وأخذوا كُتبه؛ للتفتيش عن محتويات ما بين صفحاتها؛ للكشف عن ما في سطورها من دسائس وهابيَّة وأصول نجديَّة، ففرحوا عندما وجدوا كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، فدار حوله ألف سؤال وسؤال؛ من أجل احتجاز الكتاب رهينة عندهم ..

كان المُلَّا يحملُ بيده اليسرى فانوسًا قوته فتيلة واحدة بعرض 1 سم، من مقاس الحجم الكبير، فأضاء لهم جزءًا من معالم تلك (السكة السد)، المخنوقة الأنفاس بثلاثةِ جدرانٍ مرتفعة جدًّا، رغم أن الريح الخفيفة جدًّا كانت تتلاعب بلسان إضاءة فانوسه ..

فبادرهم بالسلام كعادته .. يسلم على الصغير والكبير، وهذا ديدنه، يُسابق من يلتقيه بالسلام؛ لحرصه على كسب الأجر، ولحرصه على تأليف

القلوب، فتسابقوا لتقبيل مواقع بدر رأسه، ثم ظهر يده اليمنى المعروقة ببقع الشيخوخة بكل خشوعٍ ومودة. ومن خلال نظرة سريعة محلقة في أجواء المنطقة، استطاع أن يكتشف الأمر وعلته .. رحب بهم وطلب منهم الدخول للبيت ومتابعة سيره، فجلس بعضهم على (المنادل) الموضوعة على حصير (الچولان) المفروش في (الحوش)، وجلس المُلَّا مع صاحبهم على طرف (چربایة) مهجورة في (الطرمة) .. كان الجو حينها يقطر قيظًا، ويعصر حرارة خانقة ..

طلب من أحدهم أن يحمل الفانوس برفق؛ خشية أن (يثگب)، وأن يُقربه بهدوء من يد صاحبهم؛ ليشاهد معالم الجريمة البشعة .. نعم إنها جريمة نكراء وليس فيها رحمة، فقال المُلَّا إبراهيم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعرفوا حينها بأن صاحبهم كان معذورًا فيما فعل بهم وبنفسه، فقد غَرزتْ أنيابها بطريقةٍ وحشيةٍ، وشاهدوا المُلَّا كيف يضع بصمات أصابع يده اليمنى الأربعة فوق فتحات غرزاتها، التي عند مخارجها اختلط اللحم المنزوع بأنيابها مع قطرات الدم المتخثر، وبدأ ينفث الهواء من فمه على المنطقة المصابة، وكأنه ينفخ الهواء في صحن چاي حار جدًّا؛ محاولًا تبريده قبل شربه، ثم يُحرك براطمه بكلمات وعبارات غير مسموعة، ثم ينفث ويُغيِّر من حركة براطمه، وكأنه يتوسل بأدعية وتعويذات قرآنية، فطرأ على

ملامح صاحبهم بعضًا من أمارات الهدوء التدريجي، وكأنَّ المُلَّا إبراهيم تمكن من انتزاع الألم من جسده، ثم توالت عليه تيارات الهدوء تترى، حتى فاجأ الجميع بقفزته كالفرس من مربضه، راميًا نفسه بكل ثقله في حضن المُلَّا، يُقبله ذات اليمين وذات الشمال، ومن بين يديه ومن رأسه، ومن جهاته الأربعة ..

قرر عزُّوز زيارة المُلَّا بدكانه الواقع في سوق الحزم، مقابل سبيل الماء من جهة الشرق؛ لاستشارته بهذا الحُلم، فشاهد مدخل دكانه كعادته مزدحمًا بزبائنه، الذين يرجون منه الرُقية الشرعية، يستقبل المُلَّا إبراهيم كل الحالات الصحية، وكأنه مصحةٌ لكل الأمراض الجسدية والنفسية، ولا يرد أحدًا، ومن بين هؤلاء النساء المتزاحمات في مدخل دكانه، الواقفات والجالسات، ممن ينتظرن دورهن غير سُنيات، يأتينَ إليه لمعرفتهن بصدق دعائه وبصحة رقيته، وسمو ونزاهة عقيدته .. بعضهن يحملن أطفالهن الرُّضع، وبعضهن يحملن قوارير فيها ماء أو زيت، فشاهد عزُّوز انشغال المُلَّا بمن حوله، يقرأ على هذا الطفل الذي وضعه في حضنه، وعلى ذلك الرضيع الذي حمله بين يديه، وعلى تلك المرأة التي وضع راحة يده فوق هامة رأسها .. يقرأ دون كلل أو ملل، يقرأ رقيته على كل ما يعرض عليه من شكوى وألم، حتى العاقر التي لا تُنجب تزور دكانه، وتطلب منه الرُقية الشرعية من أجل الإنجاب، ومن طرائف المُلَّا إبراهيم في سيرة حياته، هنالك من يأتيه ويحضر معه باقة (جت) للرقية عليها بسبب جفاف ضرع

(صخلتهم) أو بقرتهم وقلة حليبها؛ ظنًّا منهم إصابتها بعين لم تذكر اسم الله عليها، والعجيب أن المُلَّا لا يردهم ..

عندما شاهد عزُّوز هذه الزحمة عرفَ أنه لا يستطيع التحدث إليه في هذا المكان، ولا يمكن إفراغ ما في جعبته من قول؛ لذا قرر تأجيل الزيارة لوقت آخر، وأن تكون زيارته القادمة بمنزله بعد صلاة المغرب ..

حين سماع نداء أذان المغرب، خرج عزُّوز من بيتهم الواقع في عتيِّة، قاصدًا مسجد الحصي، المقابل لخزان الماء من جهة الغرب؛ للصلاة مع المُلَّا إبراهيم، الذي قرأ فيهم في الركعة الأولى بـ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح]، وفي الركعة الثانية: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر]، فانشرح صدر عزُّوز لهاتين السورتين، وكأن المُلَّا يعلم سر مجيئه، وعقب خروج المُلَّا من باب المسجد، تبعه عزُّوز فسلم عليه وعرَّفه بنفسه، واستأذنه بمرافقته لبيته للحديث معه، فوافق المُلَّا لمعرفته بحاجته في أمرٍ ما، كما يفعل مع غيره في مثل هذه الحالات الخاصة، في طريقهما للبيت القريب من مسجده .. تراكض إليه الأطفال؛ للسلام عليه كعادتهم في كل يوم، فوضع يده في جيبه الطويلة، ووزع عليهم بعض الحلويات منها، وعند باب منزله سحب المُلَّا الحبل الممتد من ثقب صغير في وسط باب (الخوخة) ليفتحه .. دلف لداخل بيته بعض الخُطوات، تنحنح قليلًا ليشعر أهل بيته بوجود ضيف معه في الديوان كعادته، ثم قال بصوتٍ مرتفع مسموع:

- دربْ .. دربْ ..

ثم عاد للباب ليُرحب بضيفه ويُدخله في الديوان المعزول عن حرم البيت، الذي له منافعه الخاصة فيه؛ من مجلس للرجال ودورة مياه وحوش صغير تتنفس منه هذه المنافع .. أدخله لمجلسه، وطلب منه الجلوس بالقرب منه؛ ليسمع ما يقول جيدًا؛ بسبب تدهور حاسة سمعه؛ نظرًا لتقدمه في العمر .. خلع شطفته وغترته وترك طاقيته (المشخلة) تستر مساحة صلعته، واستأذن منه في مد رجليه المتعبتين من تضخم ورم الدوالي خلف ركبتيه.. جال عزُّوز ببصره في أنحاء المجلس، كأنه يتفقد ما به من أشياء؛ ليدونها في صفحة ذاكرته، فلم يجد في جدرانه غير لوحة كبيرة معلقة في صدر المجلس، مواجهة للقِبلة، كُتب فيها دعاء المجلس بالخط الكوفي: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"، وبجانبها صورة (حجَّة) المرحوم والد المُلَّا إبراهيم، معلقة بعناية واهتمام كبيرين، وضعها في إطار زجاجي؛ لحمايتها من (الأرضة)، وشاهد في الجهة المقابلة لتلك اللوحة (روشنة) صغيرة داخل الجدار، بُنيت من (الجص)، مكونة من رفين؛ في الرف الأسفل وضع المُلَّا مجموعة من الكتب المجلدة، لم يتمكن عزُّوز من قراءة أسمائها؛ لبعدها عنه، أما في الرف الأعلى، فقد احتل الفانوس زاوية منه، وفي الزاوية الأخرى احتلها (البردنگي) ذو اللون الأحمر القاني، الفارسي الصنع، أما في وسط الرف الأعلى فانفردت المبخرة ذات الأرجل الثلاثة الصغيرة، متبخترة بالمكان

بحرية دون مضايقة، وبدأ يسرد له حلمه الذي يتكرر في منامه، فقال له بعد مقدمة طويلة، فيها من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة النبويِّة المطهرة، مما قرأ في كُتب السلف الصالح في مثل هذه المسألة:

– يا وليدي عندي شعور بصدق حلمك، رؤياك إن شاء الله صادقة كفلق الصباح، أنت تحتاج مفسر أحلام وليس لرُقية شرعيِّة، گريت بتفسير الأحلام، لكني أجهل تفسير الأحلام، أنصحك تبحث عن مفسر أحلام، يعلمك وين الكنز اللي حلمت فيه مرات ..

فخرج منه بعد أن طبع قبلة شكر وعرفان على جبهته التي تلاعب في أخاديد خطوطها العرضية الزمن ..

بحث عزُّوز في مدينته الصغيرة القابعة في مدخل فم الصحراء، وكأنها نقطة عبور للمسافرين، بين البر والمدينة، حارسة لبوابة البادية بالنسبة لأهل الجزيرة العربية، وحارسة لبوابة الحضر بالنسبة لأهل العراق، فسأل عزُّوز من يعرف ومن لا يعرف عن مفسر لأحلامه في هذه المدينة الصحراوية، التي تلسعها العواصف الترابية الساخنة في أيام القيظ، وتلفحها الأعاصير الشتوية الباردة في أيام الشتاء، فلم يعثر على أثر لمثل هذه المسميات، وماذا عساه أن يفعل مفسر أحلام بمثل هذه المناطق النائية المتاخمة للحدود الصحراوية؟! وماذا يفعل ذلك المفسر في مدينة لا تعرف تفسير الأحلام إلا من منظور تفسير القرآن برؤيته الشرعية لها؟!، هذه

القطعة النجدية التي بذرتها عواصف القحط والخلافات الاجتماعية والسياسية في أقصى جنوب العراق، على الحدود المتاخمة لجزيرة العرب قبل أكثر من ثلاثة قرون، التي ما زال أهلها يتمسكون بقوة بموروثاتهم العقائديَّة، فيما ورد في كتاب الله الحكيم، وصحيح ما جاء عن رسولهم الكريم ﷺ، هذا المجتمع المنغلق على نفسه، الذي يرفض قصص الخرافات، ولا يعرف طريق الخزعبلات البشرية ..

نصحه ذوو الخبرة والمعرفة بالذهاب للبصرة، يُقال إن هنالك كثير من مفسري الأحلام، ربما يستطيع أحدهم فك تلك الرموز لهذا الحلم، قيل له أيضًا: في سوق الهنود يُوجد مفسر للأحلام مشهور جدًّا اسمه (شمخي).

***

سوق الهنود بالعشار

عزُّوز يعرف معالم سوق الهنود جيدًا، يعلم أوقات ذروة زحمته، الصباحية والمسائية، ويعلم أنه في وقت الظهيرة تخف الحركة فيه وتكاد تتوقف، وهذا السوق مشهور عند أهل الزبير باسم (سوق المغايز)، وبعض من أهل البصرة يعشقون تسميته الثقافية باسم (سوق الصيادلة)؛ نظرًا لكثرة الصيدليات التي تبيع الأدوية فيه، ويملك أهل الزبير في هذا السوق وفي الأسواق الصغيرة المتفرعة منه كثيرًا من المحلات التجارية، لدرجة أن تواجدهم أصبح مزعجًا لتجار أهل البصرة، فقالوا عنهم مقولتهم المشهورة: (يِذْلفْ مِن عِدْنِا يهودي يجينا نجدي)، ومن العوائل الزبيرية النجدية التي مارست مهنة التجارة في سوقي الهنود والتُجار: عبد اللطيف وعبد الحميد البسام لبيع الأقمشة النسائية، عبد العزيز الرشَيد أصحاب مخزن الكواكب لبيع العطور والملابس النسائية، إبراهيم الجار الله لبيع الأقمشة الرجالية، عبد المحسن القضيِّب لبيع الأقمشة الرجالية، عبد القادر البغادة (العثمان) لبيع الطوابع، حسين الدعيجي لبيع المعلبات

والزيوت، يوسف الشرهان لبيع الخردوات (فرش ومعجون أسنان، سيور، بكرات خيوط، إبر، أقلام ... إلخ)، عبد اللطيف الحيدر وشركائه في مخزن الإقبال، الذين هم (الزيد والدريهم) لبيع الخردوات، عبد المحسن الفارس لبيع الخردوات، عبد العزيز السويلم لبيع المعلبات، سليمان العبد الكريم لبيع المعلبات، ناصر الميضان لبيع الفرفوري (قواري واستكانات بأنواعها وصحون صين)، عبد المحسن الرشيد لبيع الأحذية، عبد المحسن الصانع لبيع الأحذية، إبراهيم القريشي لبيع الخردوات ..

لم ينقطع عزُّوز عن زياراته لهذا السوق، والتسكع بين محلاته التجارية الغنية في بضائعها المحلية الصناعة والمستوردة من الخارج، يزور هذا السوق بمناسبةٍ أو بدون مناسبة، فعادة يشتري (قاط) العيد وحذاءه من (المغازات) المنتشرة فيه، أو من سوق (حنا الشيخ)، الذي هو عبارة عن قيصرية دكاكين، تقع مقابلة سوق الهنود عبر شط العشار المتفرع من شط العرب، وينتهي هذا الشط بالقرب من ثانوية البصرة للبنين في منطقة اسمها نظران ..

يعرف عزُّوز كثيرًا من محلات واجهة السوق معرفة جيدة، أما ما خلفها من أزقة ضيقة ومحلاتها التجارية المنزوية بين هذه الأزقة، فغير معروفة بالنسبة له .. لم يُحاول في يوم من الأيام أن يكتشفها، ويعرف ما فيها، وظن

أنها مغامرة غير معلومة العواقب والحسابات، وشيء من مضيعة الأوقات..

يعلمُ أن في فم مدخل سوق الهنود، بعد عبور جسر نهر العشار، ينتشر على الأرصفة باعة، يتكاثرون بعشوائية رغم مطاردة مراقبي البلدية الشديدة لهم، ومن أشهر هؤلاء الباعة، صاحب عربة الكتب المستعملة، التي كان يتوقف عند عجلاتها في كل زيارة، ينبش ما في معدتها من كنوز جديدة لم يطلع عليها، وفي بداية مدخله على جهة اليمين يبرز دكان بائع (الشربت) المشهور، بزجاجاته الكبيرة المحشوة بقطع الثلج الصغيرة وشراب البرتقال والزبيب، وفي زاوية صغيرة من أحد أركانه خصصه لبيع (الدوندرمة) اللذيذة .. من غرائب صاحب هذا الدكان أنه يقوم بتوصيل طلبات العصير والدوندرمة للمحلات التجارية المنتشرة بالسوق، مثله مثل (الچايچي) المتجول في السوق، حاملًا صينيته وفي وسطها يستقر (القوري المسبَّت)، وحوله درزن من (الإستكاين) الصغيرة الحجم ذات الوشمات الزرقاء أو الحمراء المطبوعة على خصرها الرشيق، وخلف أذنه اليمنى تستقر (طبشورة) بيضاء اللون صغيرة، يُسجل فيها على جدار المحلات حساب أصحابها، بطريقة حساب كرة الطائرة، أربعة خطوط بالطول وخطٌ خامس بالعرض ليكون عدد (الإستكانات) التي أحضرها للدكان خمسة، وفي نهاية اليوم يقوم بتحصيل قيمة ما أحضر لهم من (چايات)، أو يتحصل على حسابه مباشرة أثناء جمع (البوشات) من

المحلات، ويُعتبر فصل الصيف هو الموسم المفضل لبائع الشربت، فيمارس نشاطه بحيوية، أما في فصل الشتاء فيتثاءب من شدة البرد، ويصيبه الخمول والكسل، ويتحول نشاطه إلى محل فاكهاني، فحين تشتد برودة الشتاء لا يتحمل زبائنه شرب العصائر الباردة، ومن السنن الشائعة والمتعارف عليها عند البصراويين في أي زيارة لسوق الهنود، التوقف عند محل بائع (الشربت) لتناول (كلاص) عصير بارد من زجاجاته المثلجة، فغدى هذا المحل كمركز حدود يقف في مدخل سوق الهنود، من الضروري جدًّا لزوار السوق التوقف عنده، وعلى جهة اليمين واليسار من السوق مجموعة من (المغازات) لبيع الملابس الجاهزة والأحذية ومستلزماتها، وفي مدخل السوق وعلى الجهة اليسرى تقف مكتبة سمير المشهورة بكتبها وقرطاسيتها، لا تزال ذاكرة عزُّوز تحتفظ بيوم شرائه لكتاب (قصة كفاحي) لأدولف هتلر منها، يوم رفض ناصر العواد أمين مكتبة الزبير الأهلية إعارته له في أيام دراسة الثانوية، فانزعج عزُّوز من تصرفه كثيرًا، وأنكر طريقة تدخله في شؤون الآخرين، لم يكن يعلم حينذاك أن هذا الرجل الذي تستقر في ملامحه وجه الجدية والأمانة، يُمارس دوره التربوي والفكري في مجتمعه.

يُشاهد زائر هذا السوق التُراثي المُعمِّر مجموعة من اللوحات الحديديِّة المتراصة جنب بعض، المتشابهة في الحجم والخط والألوان، لأسماء مجموعة من عيادات الأطباء من ذوي التخصصات المختلفة، فبعضهم بلغت

شهرته الآفاق، ويأتيه مرضاه من كل المحافظات العراقية، ويُلاحظ زائر هذا السوق مجموعة من الدكاكين الصغيرة، يبيعون التوابل والبهارات، بداية كان يبيع فيها مجموعة من الهنود، قدموا من الهند مع الإنكليز أيام احتلالهم للعراق؛ فلذا ينسب البعض سبب تسمية هذا السوق لهؤلاء الهنود، وقبل الوصول لمنتصف السوق، حتمًا سيخترق أنفك رائحة شوي لحم، مطعمٌ مشهور في أحد فروعه يبيع (الفشافيِّش)، وتلتصق بجواره قهوة صغيرة وكأنها جزء منه، أو امتدادٌ له، ولا تستغرب؛ ربما يفاجئك في السوق مهرج جريء، يُروِّج لدعاية فيلم جديد في سينما الحمراء أو سينما الوطن أو سينما الكرنك أو سينما الرشيد، تشاهد خلفه من يحمل لوحة كبيرة من خشب، يرفعها على أكتافهم مجموعة من الشباب، عليها ملصقات ورقية ملونة، فيها صور لنجوم الأفلام وأسمائهم التي ستعرض في صالات تلك السينمات الفارهة ..

وفي هذا السوق المزدحم بزواره يُسمع صوت الباعة المتجولين، مثل باعة (الكعك) و(البقصم) و(الصمون) الحار و(السمسميَّة) و(البيروتي) و(السباري)، وبائع (كُبْة البُرغل) بعربته الخشبية، وبائع (العالوچة) ذات الألوان الزاهية، الذي يحمل صينيته على رأسه ولا تسقط، وكُرسيها ذي الثلاث أرجل، وبائع (شعر البنات) ذي اللونين، وربما سمع زوار هذا السوق تغريد بائع (بيض اللگلگ)، وبائع الفرارات الملونة، وشاهدوا عربات باعة (الليدي ستيك) و(الشلغم)، وأصحاب ذوي الحظ الجيد

سيشاهدون عربة (صندوق الدنيا)، والأهم من هذا وذاك، أن كل من يدخل هذا السوق يستغرب من كثرة بائعي بطاقات (اليانصيب) الزاهية الألوان والصغيرة المقاسات، يعرضها البائعون على صناديق كرتونية، ويضعون تحتها قطعة قماش بيضاء اللون ..

وصفوا لعزُّوز موقع مكان المفسر (شمخي)، بعد عبوره لجسر سوق الهنود وتوغله فيه، وتجاوز دكاكين البهارات يتقاطع مع (سوق التجار)، عليه أن يتجه لجهة اليمين، ويواصل سيره مع أول نافذ منه على جهة اليمين، في بدايته سيجد زقاقًا ضيقًا على جهة اليسار، يدخله حتى نهايته، عندها يفترق به الزقاق، وتصب أقدام المشاة في فرعين، عليه أن يأخذ الفرع الأيمن منهما حتى نهايته، الذي سيضيق به فيصبح مثل عنق الزجاجة، لا يرى الشمس أبدًا، ولا يسمح إلَّا بمرور الدراجات الهوائية وأقدام المشاة، عنده تتعثر رغبات كافة أنواع العربات من دخوله، وقبل نهايته على اليسار سيجد بيتًا معتقًا بغبار الرماد ورائحة المقليِّات المحروقة، بابه خشب هندي منقوش، استهلك الزمن كثيرًا من عزم صموده، ليس به مطرقة أو مسكة للباب، ولونه بني غامق جدًّا، وزائره سوف يكشف بأن صاحبه من مدمني استخدام الفحم في كل الأوقات، سيُشاهد عند عتبة الباب (خيشة) من الفحم تنتظر الاستعمال قريبًا، تناثرت بعضُ فصوصها الصغيرة من فتحات (الخيشة) على وجه الأرض المصبوغة باللون الأسود .. اطرق الباب وسوف تجد هنالك شخصًا يُجيد تفسير الأحلام

اسمه (شمخي)، رجلًا متقدمًا في السن، في منتصف الستينيات من العمر، نحيف الجسم، طويل القامة، أصلع الرأس، لون بشرته يميل - بدرجة كبيرة - للون الأصفر القوقازي، وكأنه أحد المصابين بمرض فقر الدم الشديد، يُغطي معظم وجهه بلحيته المهذبة المرتبة، بلونها الفضي اللامع الجميل، وكأنها وجه سطح البحر في ليلة أضاء البدر ظلامها، ولا تستغرب من وضع طاقيته الصغيرة الحجم ذات اللون البني الداكن المائل للسواد، التي يركنها في مؤخرة هامته، وكيفما اتفق، وإياك أن تظن بأنَّه من بقايا يهود البصرة .. هو مسلمٌ جاء من منطقة أذربيجان أيام عنف الشيوعية فيها، وتسلطها على رقاب العباد بمبادئها الكافرة الهدامة القذرة .. لقد قام ذلك الحزب اللعين بتشريد واضطهاد المسلمين هناك .. عرف عزُّوز وصف خارطة المكان جيدًا، وحفظ طريق الوصول إليه، وعرف ما يُريد أن يقول له، فقرر أن يذهب.

***

مفسر الأحلام (شمخي)

جاء اليوم المنتظر الذي يضع فيه حدًّا فاصلًا لمثل هذه الأحلام المرهقة؛ ليكشف فيه عن حقيقة حلمه، ومعرفة كنزه الموعود به .. قلبه يتقافز طربًا كعصفور يتعلم الطيران؛ لما ينتظره في المستقبل القريب، قادته ذاكرته لخارطة الطريق التي حفظها عن ظهر قلب، وعند الباب المغلق، توقف لحظات قبل طرقه، مترددًا بين الإقبال والإدبار، وبين الخوف والأمل .. أنفاسه متلاحقة، تعدو بسرعة خلف بعضها البعض، وقلبه يستجدي الهواء بمشقة وبأي وسيِّلة متاحة؛ مشروعة أو غير مشروعة، ضغط عزُّوز على زر الجرس الموصول للجدار عند الجهة اليمنى من الباب، ضغطة واحدة فقط، لم يسمع للجرس صوتًا، عاود الكرة بالضغط بعد دقيقتين من انتظاره، بضغطتين خلف بعض، وعادة من ينتظر شيئًا تكون عنده الدقائق ساعات، فَفُتِحَ له الباب دون سماع السؤال المعتاد، من بالباب؟ كما جرت العادة عند الأبواب المقفلة، فطل عليه شمخي برأسه، فكان الرجل نفسه الذي ذُكرتْ له أوصافه، فاستغرب عزُّوز كثيرًا من دقة بعض النَّاس في الوصف والتشبيه، فالتصق لسانه في سقف فمه، وتلعثم في الكلمات الخارجة من

فمه، وهاجرت جرأته في الكلام، وغرد الصمت منفردًا بينهما في تلك اللحظات، وعزف الاستغراب لحنه على وجه الاثنين معًا .. استغرب (شمخي) من هذا الشاب الواقف أمامه، كقالب ثلج دون حراك، مصوبًا تركيز نظره إليه، كأنه يُفكر في كيفية احتجازه .. انتابه الخوف والقلق من كل جانب، وتسرب لقلبه الهلع، وظنَّ أنَّه لا محالة أمام أحد شباب رجال الأمن، يُريد الوقوع به في مصيبة، وجرجرته في تحقيقات ليس له فيها طرف، ولها بداية وليس لها نهاية، كعادتهم في أي اشتباه يحلو لهم استدعاؤه، سواء أكان بجريمة قتل أو جريمة سرقة، فرتب نفسه بشجاعة أمام هذا الشاب الواقف أمامه، وقطع عليه مشوار زمن الصمت الذي اقتطع حيزًا من الوقت، فقال مُرحِّبًا به مادًّا يده اليمنى لداخل البيت كإذن له بالدخول:

- تفضل ابني ..

دخل عزُّوز مُتثاقلًا، يجر خطاه بتردد في ممشاه الثقيل، كمن يحتج على استدعائه للدخول بلا رغبة منه، يُقدم الرجل الأولى ويُؤخر الثانية، فأدخله في غرفةٍ صغيرة منعزلة عن باقي الغرف والخالية من المراجعين، يتنفس ظلامها ضوؤه الخافت من بقايا أشعة إضاءة مستهلكة، تسربت من ضوء مصباح كهرباء معلق في الممر .. أجلسه شمخي على كرسي حديدي ثابت، بينما جلس هو على كرسي متحرك أداره نحوه، وجعل بينهما منضدة صغيرة مصنوعة من الخشب مستديرة الشكل، عبثت في وجهها أعقاب السجاير

المتناثرة من المنفضة، فتركت آثارها البشعة كجدري أطفال لم يرحم مصابه، تنتصب فوقها مزهرية صغيرة فيها ورد بلاسيتكي ملون، وحولها مجموعة من أقداح الشاي وكأس ماء لم يكتمل الانتهاء منها، ولفت نظره جريدة مفتوحة على صفحة قراءة الكف، قال له شمخي دون مقدمات:

– شنو اسمك ابني؟

– عبد العزيز.

– من يا ولايه؟

– من الزبير.

– من النجاده؟

– من الزبير.

– شنو مشكلتك، وليش جاي هنانه؟

وبسرعة وبدون مقدمات سرد عليه قصة حلمه الذي شاهده عدة مرات وفي ليالٍ متباعدة ..

– ابني لا تخاف، أبشر بهوايه خير جايلك، اتركني أخلص شغلي من هاذ المسحور وأعوُدْ إلكْ، راح أدلكْ على كَنْزَك ..

انبهر قلب عزّوز قبل عقله من شدة ما تعرض له من مفاجأة لم يكن يتوقعها مطلقًا!! وسأل نفسه، ماذا قال؟ مسحور!!

- ابني أحچي وياك، تعال لصالون الانتظار، شبيك ما تسمع؟

لم يسمعه عزوز .. شغل تفكيره معرفة شخصية شمخي، ظلت عشرات الأفكار تصطخب في تفكيره، كل واحدة تشده؛ مما جعله مشتت البال في لحظتها، رن سؤال في فكره وكأن ناقوسًا يدق فيه، هل شمخي فعلًا ساحر؟ هل يتعامل مع الجن والشياطين؟ والعياذ بالله منه ومن أفعاله ومن قراطيس عُقد تعويذاته، يسأل نفسه ثم يُجيبها ويتحدث معها .. لا ليس من المعقول أن يكون ساحرًا، دلني عليه ناس خيِّرون، أهل تقوى وورع، لا يعرفون طريق السحر والشعوذة، والله إنَّها مفسدة لو كان (شمخي) ساحرًا، كيف أتعامل مع سحر وشعوذة!! لا .. أعوذ بالله .. لا يمكن، عليَّ أن أتوكل على الله وأطلع من هذا المكان، لا أريد السير في طريق السحر والجن والشعوذة من أجل تفسير حلم، أعرف التحذيرات الكثيرة التي وردت في السحر، ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه] .. إنها مفسدة ما بعدها مفسدة، ليس فيها فلاح أبدًا، وأعلم نهي نبينا محمد ﷺ، وتحذيره الشديد من التعامل مع أمثال هؤلاء السحرة، أو مع أي أثر من تعويذاتهم وقراطيسهم وكتابات طلاسمهم، لا يمكن لي الإقدام على مثل هذا الأمر .. أستغفر الله .. وأتوب إليه ..

استمر الرجل الجالس بجانب عزُّوز في الصالون يُكرر عليه الكلام دون توقف:

– الله بالخير .. الله بالخير .. الله بالخير .. يااااب ..

لكن عزُّوزا لم يسمعه في بداية جلوسه معهم .. كان مشغولًا في صدمة المفاجأة التي تعرض لها، بظنَّه أنَّ شمخي ساحرٌ، وكان على عزُّوز المحافظة على نزاهة عقيدته التي يعتزُّ بها كثيرًا، وتربى عليها منذ نعومة أظفاره، في مجتمعه الصغير المحافظ على مثل هذا الموروث في تأصيل الأفعال والأقوال بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وأخيرًا انتبه عزُّوز لمن حوله في الصالون والتفت على يمينه بعد أن أرخى أزرار قميصه العلوية للاسترخاء؛ ليسمع صوت الرجل ذي الشعر الثلجي، الذي بجانبه وهو يكلمه، وقد اكتسى وجهه بكل علامات الجدية:

– هاي المرة الثالثه أقولكْ الله بالخير وما ترد عليه، شبيك ياب؟

– الله بالخير جميعًا، آسف يا جماعة، المعذرة ما سمعت.

بسرعة خاطفة ألقى نظرة لمن يجلس معه في صالون الانتظار، فشاهد مجموعة من الرجال الغرباء، سأله أحدهم دون مقدمات وكأنه مُتهم في محاكمة:

– شبيك ما ترد؟

- عفوًا، گلت ما سمعت .. وأعتذر لكم.

- شبيك ياب؟ مسودن؟ مسحور؟ مجنون؟ مضيع المچان؟

- لا .. طالب بجامعة المستنصرية، والله يسامحك عمي، والله بالخير جميعًا، وآسف ما انتبهت لكم ..

- معذور .. معذور ياب .. مضيِّع عمرك، خوب هاي سواليف طلايب طالبات الجامعة، مايجي من وراهن غير المصايب والبلاوي، أكيد واگَعِ بقصة حُب وغرام، ومنْلاصه عليك هواي، من عُگب ما عُرْفتْ الدكتور وعافت إلكْ البنت بعد ما قمشرتك چم سنة، وبعدين إنكلبت عليك!!

- لا .. لا عمي، يواش .. يواش على كيفك الله يرحم لي والديك، مالي شغل بهاذي السوالف.

- لَعدْ ليش جاي هنايه؟

لقد اعتادت المجتمعات في صالة انتظار الأطباء على حرية الحديث؛ لقضاء فترة الانتظار، التي عادةً ما تكون مملة للمريض ومن معه في بعض الأحيان، وقد تطول أحيانًا هذه الفترة حسب الحالة المرضية، ولذا فإن أكثر المراجعين يتداولون في مثل هذه الأوقات سيرة أمراضهم الشخصية، والأعراض الظاهرة لتلك الأمراض التي أصابتهم، وشرح الأسباب التي أدت إلى مجيئهم لمثل هذا المكان، وتسمع روايات متنوعة كثيرة؛ خليطًا بين

الخيال والحقيقة، وبين التجربة والتوصية، تسمع قصصًا كثيرة عن المرض الذي ألم بهم، وعن معاناتهم معه وطول فترة علاجه، وربما تسمع سيرة كل مريض كاملة، والتجارب الكثيرة التي تعرضوا لها لمكافحة مثل هذه الأمراض العُضال، ناهيك عن بعض من يهدي إليك توصيات تجربته الخاصة في مرض معين؛ عاصره هو أو شاهده في عائلته، وكأنه دكتور ماهر في تشخيصه، وربما سمعت من يهدي لك وصفات طبيِّة لأدوية معينة، ناتجة عن خبرات وتجارب سابقة؛ مما قد تؤثر سلبًا مثل هذه الحكايات المتبادلة بين المرضى على تشخيص حالة المريض لدى الدكتور، فربما يقوم المريض بدس في أعراض مرضه ما قد سمع من أعراض المرضى الآخرين في الصالة، وما كان من عزُّوز غير التزام الصمت، وأن يكون مستمعًا جيدًا لحوارهم الشيق ..

فجأة ران الصمت والهدوء في صالة انتظار المراجعين، حتى ليكاد عزُّوز يسمع صوت أنفاس المراجعين في صدورهم، بعد أن تفشت أعراض بعض الأمراض النفسية السائدة فيما بينهم في هذه الصالة المخنوقة، ذات الجدران العارية من اللوحات، والأرض الخالية من قطع السجاد، والمطلية جدرانها باللون الأخضر الداكن؛ كي تخفي بإصرارٍ عدم وضوح رؤية المتواجدين فيها؛ بسبب ضعف الإضاءة الخافتة المتعمدة، المشعة من مصباح كهربائي صغير يتدلى بسلك قصير من سقفها، تراكم عليه غبار الشهور والأيام، وتكاسل صاحب الدار عن تنظيفه ..

كانت عيني عزُّوز تتنقلان بين وجوه الحاضرين الواحد بعد الآخر، فشد انتباهه صوت صاحب (البشت) الأسود، الذي يضع على رأسه (شماغًا) أسود، ويضع فوقه عقالًا أتعب رأسه من ثقل حمله، يُخاطب من بجواره وعيناه ترنو إلى الجالسين في وجل، بعد أن كسر حاجز الصمت الذي أطبق على جو الغرفة:

- هل نِفَعْ بِيه عمل (شمخي)؟

- گبل لا أجيبه هنايه أخذته لشيخ معروف ومشهور يقرا على الجن والعفاريت بمهيجران، يجر الجني من ذيله ويغطس راسه بالشاخة، قرا عليه إتلث مرات، وبكل زياره يطيِّه بُطل ماي خابط، وهمين ماكو فايده، باوع بعينك الوُلِد ..

***

العقل المسكون

عندما سمع عزُّوز حكايات الجن والعفاريت، تذكر قصة سعاد زوجة صديقه أحمد، الذي يسكن في منطقة الباطن، قريبًا من منزل أهله، والتي أسماها زوجها أحمد بالعقل المسكون، وكيف تمكن المُلَّا إبراهيم من طرد الجني من حياتها، يوم حدثه صديقه أحمد بنفسه عن قصة جنونها، قال له: كنتُ نائمًا وإذا بي أسمع صوت زوجتي:

- أحمد .. أحمد .. سمعت الصوت؟

- شتقولين؟ ما سمعت شيء، وبعدين قعدتيني من النوم .. اذكري الله وصلِّي على نبيچ وانفثي على جهتچ اليسرى ونامي على جنبچ الأيمن ..

- أحمد .. بالسهوله هذي تقول چذيه !! .. شفيك !! أقول لك سمعت صوت بالمطبخ!!

- سعاد يرحم لي والديچ .. حبيبتي، أخاف يكون مثل كل ليلة نقوم ولا نشوف شي!!

– أنا متأكدة أحمد سمعت صوت قوي گعدني من نومتي، ومدري شنو طاح بالمطبخ!! گم الله يخليك عشاني ذي المرة نشوف شكو بالمطبخ؟

– يا بنت الحلال .. تراني تعبت من هالتصورات والتهيؤات اللي تعانين منها، كل ليلة وحنا على هاذي السالفه، تجيلك نفس الحالة، قلت لچ .. خليني أخذچ لشيخ يقرا عليچ ويشوف لچ حل للتخيلات ..

– أحمد .. صدقني سمعت صوت أكيد بالمطبخ!! بس گِم نشوف هناك!!

نهض أحمد وذهب معها للمطبخ، رغم عدم قناعته فيما تقول، لكنه نزولًا عند طلبها ولمشاهدة من سيكون هناك ..

فتحا باب المطبخ المغلق ودخلا، فشاهدا باب مخزن الأواني مفتوحًا وبعضًا من القدور منكفئة، وكأسين ماء تناثرت أجزاء زجاجيهما على وجه أرض المطبخ، وعطرٌ تفوح رائحته بعد أن سقط من الرف وكُسرت قارورته!! فصرخت سعاد بأعلى صوتها:

– (يمه) .. (بسم الله علي) ..

رمت رأسها الدافئ مختبئة في حضن زوجها فوق شجيرات صدره العاري .. فردد معها أحمد:

– (بسم الله)، اللّهم إني أعوذ بك من شر الإنس والجن وأن يحضرون..

استرسل أحمد في قراءة المعوذات وما حفظ من كتاب الله عزَّ وجل، وما سمع من أدعية صحيحة لرسول الله ﷺ، حفظها في أيام دراسته بمراحلها المبكرة، أيام التلقين (الدرخ) .. هدأ من روعه قليلًا، واستعاد بعضًا من تركيز حضوره الشارد، وهدأت أنفاسه الثائرة؛ خوفًا من هذا الموقف ..

صرخت سعاد بأعلى صوتها:

- خذني لبيت أهلي، ما أگعد بهذا البيت المسكون بالعفاريت والين، ولا ساعة وحدة ..

- يا بنت الحلال، اذكري الله وصلي على نبيِّچ .. باچر الصبح نشوف صِرفه بالموضوع إن شاء الله ..

- لا .. لا يمكن أنام هنيتن الليلة.

- أرجوچ .. لا تفضحينا مع أهلچ وأهلي واليران، ونصير علچ بحلوجهم ..

المرأةُ رغم قوة حجتها بالدليل، إلا أنها تملك سلاحًا فتاكًا وخطيرًا، تستخدمه في جميع مواجهاتها، لا تستغني عن استخدامه، رغم عدم حاجتها إلى مثل هذا السلاح في بعض الأحيان؛ نظرًا لمعرفتها المسبقة بأن أعلام انتصارها تُرفرف في الميدان .. عودتنا سيول دموعها على هزيمة أي موقف

قد ينشأ ضدها، فدموعها تُعتبر المُسكن الهادئ لحل كافة مشاكلها بكفاءة عالية، والمرأة تملك نوعين من منابع الدموع؛ فالنوع الأول منها الدموع ذات الطعم السكري، أما النوع الثاني منها فالدموع ذات الطعم المالح، فقطرات الدموع المالحة حقيقة وليس فيها نفاق وكذب، أما قطرات الدموع ذات المنابع السكرية، فيعتريها التلفيق والكذب والتزوير، ولكن كيف يتم معرفة هذه الدموع السكرية من تلك الدموع المالحة؟

أخبرَ أهلها بما حدث ليلة البارحة من مشاهدات، صَممتْ أمها بحزم وعزم على أخذ ابنتها لشيخ يقرأ عليها من أثر صدمة الرهبة التي تعرضت لها .. خافت عليها من صديد الأمراض النفسية التي قد تنشأ بعد هذه الحادثة، وأصرت على زوجها أحمد تنفيذ رغبتها رغم عدم قناعته، ولكن إرضاء لها استسلم كلاهما لرغبات أمها الموجوعة بواقع ابنتها المرير، فذهبا بها للملا إبراهيم المشهور في زمانه بمدينته بالرقية الشرعية؛ ليقرأ عليها ويكشف ما فيها من غمة في قلبها وعقلها ..

جلسوا في طرف مجلس (الديوان)، ويفصل أحمد بينهما وبين المُلَّا، ومجلس ديوانه يُعتبر محرابًا للرقية في بيته .. جلستهم كانت يغشاها الخوف والخشوع والاستسلام التام لما سيقرره المُلَّا، وانتظار ما سيسفر عنه هذا الكشف، كأنهم ينتظرون نتيجة تحليل دم لمعرفة مرض خطير قد اعتراها، أو نتيجة أشعة لورم يُقرر فيه الطبيب المصير ..

خلل شيخهم إبراهيم لحيته الطويلة المشبَّعة بدخان العود، ودهن الورد بأصابعه النحيفة الملساء، المقروضة الأظافر بدقة وعناية، ثم رفع لحيته للأعلى؛ لملامسة طرف أنفه؛ ليشم ما فيها من رائحة ذلك المزيج من الطيب المفضل لديه .. جلس مُصغيًا لحكايتها بكل تركيِّز، ثم اندفع بحديثه معها بقوةٍ، يسأل .. ويسأل، وانتبه زوجها أحمد لأسئلته المتوالية عليها، بأنَّها ليس لها علاقة بأحاديث الجن والشياطين ..

- چم أخت عندچ؟

- ثلاث خوات.

- چم مرة بالأسبوع تروحين لبيت أهلچ؟

- مرة وحدة، ونوبات مرتين.

- زين، يروح زوجچ وياچ لبيت أهلچ؟

- إيه، دايم يروح وياي ونگعد يميِّع مع أمي ..

- تروحين مع أمچ وخواتچ للسوق سوا؟

- لا.

- ليش؟

- دايم أروح ويا ريلي لحاجاتي.

- خواتچ لهن طلعات خاصة ويا أمچ؟

- إيه .. يروحن كل يوم تقريبًا.

- يسكنون بعيد عن بيت أهلچ؟

- لا .. يسكنون بنفس سكتهم.

فصرخ المُلَّا بأعلى صوته ضاربًا الأرض بعصاه (الخيزران)، التي جهزها بقربه لمثل هذا الموقف المهم، تطاير على أثرها غبار السجادة في مجلسه، ثم قال:

اخرج يا جني .. اخرج يا جني ..

ثم التفت لزوجها أحمد الجالس بجانبه، فقال له:

- خذ مرتك للبيت، وارجع لي أعطيك الدوا الشافي لها إن شاء الله.

عاد إليه أحمد مسرعًا بعد أن قام بتوصيل زوجته سعاد وأمها للمنزل، فقال له شيخه:

- مرتك ماهي مسكونة، وما عندكم جنَّ بالبيت يا أحمد، ولكن عقل مرتك نفسه مسكون!! تبي الگرب من أهلها، والحل بيدك يا أحمد.

لم يفق عزُّوز من معارج ذاكرته إلا بصوت من يجلس بجواره وهو يُخاطب الرجل الذي يجلس أمامه بصوتٍ مسموع:

– نعم زاير چايد، قراية المُلَّا نفعت بيه شهرين لو تلاثه، ورد مثل ما چان گبل، مثل منت شايفه گبالك، تحس بيه كوم لحم، بس مو ويانا، ساحرته بنت الچَلبْ ..

جبناه لشمخي چُود ينفع بيه شغل، چُود يعيده لحياته من جديد، مشكلتنا صارت لو يطلع من البيت مَيُعرُف يرد، صرنا نطلعه ونرده، مثل الجَاهل الله وكيلك ..

في هذه الأثناء دخل عليهم (شمخي)، فشاهد عزُّوزا غارقًا في صراع هواجسه، مدثرًا نفسه بصمت رهيب، يبحثُ عن موانئ لتستقر فيها أفكاره التائهة الحائرة، مستمعًا لأحاديثهم التي ليس لها نهاية، فطلب منه شمخي أن يتبعه لغرفة الكشف والعلاج، التي تدافعت عند بابها غيمات بيضاء من الدخان؛ هربًا من اختناقها داخل الغرفة، فطلب منه الجلوس على الأرض مثله، وكان بينهما موقد فحم يتصاعد منه دخان (الياوني) بكثافة، في بعض الأحيان يحجب وضوح الرؤية داخل الغرفة، لم يستطع أن يُميّز ما في داخل هذه الغرفة بوضوح ليصفه لنا بالتفصيل، غير تلك المكتبة الضخمة التي تحتوي على مجموعة من المجلدات، فقال له شمخي متصنعًا هدوءه:

– باوع ابني .. انتَ رَجَال محظوظ، خصك ربي بكنز دون غيرك من أهْلَكْ، مو لازم تعلم بِيه، هل عَلمِتْ غيري؟

– إيه، عَلْمتْ المُلَّا إبراهيم

- يا مُلَّا إبراهيم هاذ؟

- إمام مسجدنا بزبير.

- زين ياب، خوب بعد ما راح تعلم غيره نوب ..

فرد عليه بصوت حزين يغشاه التوسل:

- ممكن تدلني من غير شغل ينانونه وشياطين؟

- ياب .. شدخل الجن والشياطين بالموضوع؟

- أبيك تساعدني بخبرتك كبشر، بمعرفتك لتفسير الأحلام، مو بالتعاون وياهم!!

- ياب اسمع، هذول الجن والشياطين ما يعرفُون من تفسير الأحلام شِي، هذا العِلمْ مُغيب عنهم كلش نوب ..

- الحمد لله.

- ابني أريدك تنصت لي زين، وتسوي مثل ما راح أگولك بكل دقة، وصدقني راح تلگى كنزك .. سمَعِتْ؟

- إن شاء الله بما يرضيه.

- ابني .. الله سبحانه إنطى كل إنسان كنز خاص بيه، وما عليه غير يدور عليه زين، لكن المشكلة هوايا ناس يعافون كنزهم، ويباوعون على

كنز غيرهم، لا تصير مثلهم ابني، هذول هم الخايبين العايبين، اهتم بالبحث عن كنزك، اللي جالك في المنام عدة مرات .. رؤياك صادقة ابني .. لا تفرط بِيها، كنزك المفقود معناه مستقبل موعود بيه، ابني باوع شگولك، كلام لازم تحفظه غيِّب وماريِّدك تنْساه نُوبْ، فك لي أذونك وعقلك زين، يابه من كلامك عن رؤياك بالمنام، مبيِّن هاذ كَنزكْ بِيهْ هوايا فلُوس!! ومن وَصفْ الرؤيا مَالتَكْ أقدر أقولكْ، تفسير حِلمَك، كنزك مدفون بحُوش بَهايم، بيه هُوش وصَخل، مدفون تحت الأرض بعمق نِصفْ متر، ويبعد عن باب الغرفة الموجودة بهاذ الجَاخُور حوالي مترين، ولمن يصير العصر وقبل صلاة المغرب بساعة يكون طرف ظل الشَمِسْ عند رجولكْ، ورجولك هاي استعارة بالحلم عن كنزكْ .. خلاص ابني حفَظِتْ الكلام اللي قلته إلك زين؟ روح هسه دور على حُوش البَهايم، بيه مثل هيچ مواصفات ..

– هاذا الحوش بزبير ولا بمكان ثاني؟

– بالتأكيد بالزبير، بالمچان اللي حلَمِت بِيه، مو معقوله بيجيلك كنز بمچان آخر ..

فشكره عزُّوز، ثم أدخل يده في جيب بنطلونه الطويل، وأخرج منها ورقة نقدية فئة العشرة دنانير، فصرها بيده على استحياء، فما كان من

(شمخي) غير قبولها وشكره، وداعيًا له بالتوفيق، ومذكرًا إياه بأن هاذ عربون الكَنزْ، والباقي لمن ينلگى الكَنزْ عُود، خُوبْ مو تنساني!!

خرج عزُّوز من منزل (شمخي) عبر سوق الهنود، متوجهًا لموقف سيارات نقل الركاب (المصلحة) بالعشار، الواقع مقابل نهر العشار، قرب معمل السعدي المشهور ببيع الكعك المميِّز بأنواعه والحلويات الكثيرة، ولا يعلم عزُّوز كيف وصل لموقف المصلحة في الزبير، مقابل دكان عبد الخالق بائع (الدوندرمة) اللذيذة ذات اللون البرتقالي، كأن الزمن تعمد نسيانه وركنه في أحد زواياه لمشوار آخر، وكأن حركة عقارب الساعة لفظت أنفاسها عند تحقيق طموحه وأحلامه من ذلك التفسير، والمسألة ليست بالسهلة بالنسبة له، إنها بحاجة لبحث وتفتيش عن مثل مواصفات هذا (الجَاخُور) أو (حُوش البَهايم) على رأي المفسر (شمخي) ..

كان سؤال عزُّوز الملح عليه في دائرة ذاته: أين يجد مثل هذا (الحُوش) أو (الجَاخُور)؟ شلَّ عقله كثرة تفكيره في التوصل لمعرفة تحديد مكانه، والجواخير في الزبير كثيرة، ثم كيف يُقنع خاله حمد وإذاعته زوجته طيبة المتربصة لكل حركة وحدث في البيت؟ اللذين تبنيا الوصاية الرسمية على تربيته منذ صغره، كيف يجد وسيلة إقناع لهما على ضرورة العمل بجَاخُور حيوانات وهو ابن العائلة المرموقة؟ وماذا يمكنه أن يُبرر مثل هذا العمل لأهله وأقاربه، من أعمام وخوال وكل ذي صلة رحم فيه؟ سيجدون

حكايته متعة في الحديث بمجالسهم، وسيتكلمون عن طالب كلية الإدارة والاقتصاد، وسيقولون: وقع فريسة لأوهامه وأحلامه الليّلية، وجن جنونه بأوهام، وطار عقله في تفسير الأحلام، اختلط عليه السواد بالبياض، وهاجرت باقي الألوان خارج دائرة عقله.

وتضاربت أسهم آرائه المتذبذبة بين رصيد أمله المنشود وحال واقعه الموجود!! فما العمل؟ لا يوجد إلّا خيار واحد، العمل دون علم الآخرين!! عليه أن يتجه نحو العمل السري في البحث عن كنزه، وله تجربة سابقة فاشلة فيه، عندما كان طالبًا في الثانوية العامة، عندما انخرط في جماعة الدعوة إلى الله، في أيام الشباب واندفاعاته، أيام نشاط الصحوة الإسلامية وحماس شباب الأمة الإسلامية ببريق تجمعاتها الواسعة وأنشطتها الكثيرة .. لم يتمكن من مواصلة السير والعمل معهم، لقناعات شخصية خاصة به؛ بسبب اختلافات شخصية، استجدت فيما بعد، غيرت في ترتيب أولويات فكره، فهجر فكرهم التجمعي، وتنازل عن همة دعوتهم السامية في أول سنة من حياته الجامعية، وهكذا النَّاس قد تُؤمن بشيء اليوم كحقيقة، ولكن بعد فترة تتضح لها معطيات جديدة، تجعلهم يغيِّرون أفكارهم ومواقفهم، وهكذا هي الحياة بصورة عامة، عبارة عن سلسلة طويلة من المواقف والمتغيرات.

***

الحصي (الحُسِيّ)

هاجر عبد العزيز الجد الأول لعزُّوز مع زوجته سارة من منطقة سدير لمدينة الزبير، في السنوات الأخيرة للمشيخة بالزبير، بعد فتور الهجرات النجدية الكثيرة من قُرى نجد - بعد أن ذاع صيتها، خصوصًا بين الشباب - لأقصى جنوب العراق، سواءً أكانت للزبير أو للخميسيَّة أو غيرهما؛ نظرًا للضغوط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي اجتاحت نجد في تلك الأعوام.

بداية استأجر عبد العزيز (الجد) بيتًا صغيرًا يأويه مع زوجته سارة في منطقة الحصي (الحُسِيّ)، التي يسكن فيها كثير من العائلات التي هاجرت من نجد، ومنهم المخضب، القصيِّر، الخميس، الوحيمد، اليحيى، الصلحان، البقمي، المبيض، الشنيفي، الحميد، الشملان، الحيدر، وغيرهم كثير. والحُسِيّ تصغير للحسو من الإحساء، منطقة منخفضة من الأرض تقع في وسط بلدة الزبير، تجري إليها سيول الأمطار من الأزقة والطرقات النافذة إليها، ويُحتجز فيها الماء حتى إذا امتلأت خرجت هذه المياه إلى

شارع الباطن الذي يدفعها إلى الخارج بعيدًا عن البلدة والمنازل، والحصي فيها بئر ماء ونازوحة، وفيها (مِدِيْ) لسقي البهائم، ويأتيها ماء السيل من فائض (ديم خزام) الذي يستقبل مياه شِعيِّب وادي الباطن، وفي بداية الخمسينيات من القرن الماضي تم رَدم هذا المنخفض، ثم في بداية الثمانينيات تم بناء مستوصف فيها ..

لم يستطع رحم جدته سارة أن يُنجب أكثر من أبيه (سعود)، حاولت سارة مع كل أنواع الأدوية الشعبية المتاحة في عصرها؛ من أعشاب وخلطات ومن رقية شرعية، شفهية أو ورقية وضعتها تحت مخدة رأسها، وجربت بعض التعويذات الصوفية، حَرصتْ على أن لا يفكر زوجها عبد العزيز بأرض إنجاب من غيرها، لكنها فشلت في كل محاولاتها .. لم تُفكر أبدًا في يوم من الأيام بأن العقم منه وليس منها إلا بعد زواجه من زوجته الثانية (مريم) التي تصغره بعشرين عامًا .. لم تُفكر بأن العقمَ من الآثار الجانبية لمرض النكاف الذي أصابه أيام حملها بابنهما سعود ..

مريم زبيرية الولادة والمنشأ، وجدُّها جاء أيام الهجرات للزبير، قادمًا من قلب مدينة حريملاء، بقيت هي الأخرى معه عشر سنوات تجاهد مع نفسها على الإنجاب، ولكن رحمها لم يستوعب فحولة قطرات مائه، فلم تنجب منه شيئًا، فطلبتْ منه الانفصال والطلاق؛ نظرًا لاستفحال أحلامها الوردية بالأمومة وتربية الأطفال، وهذا مشروعٌ لها في عُرف الشريعة

والشارع، وحق لها وفق التقاليد الاجتماعية المتعارف عليها، ولن يلمها أحدٌ في ذلك، فأذعن لطلبها على مضض بعد محاولاته الكثيرة الفاشلة في تجارب التخصيب الطبية والأدوية الشعبية، في أثناء الليل وفي أطراف النهار، وفي كافة الأوضاع والأوقات، فتزوجت رجلًا غيره، أكبر منها عمرًا كذلك، لا يُريد من زواجه منها ذُرية؛ فلديه من الأبناء والبنات ما يكفيه من زوجته الأولى التي لا تزال على ذمته، وفي سنتها الأولى حملت مريم منه، وأنجبت له عدة أبناء وبنات، وعندها أيقن عبد العزيز أنَّ العجز في الإخصاب فيه، والعلة تكمن في ذكوريته وليس من الزوجتين ..

***

الأهوار

عاش سعود، الابن الوحيد الذي حَظيَ بمشروعية الدلال الكامل، منفردًا بين أقرانه من الأقارب والمعارف .. عاش حياة المتابعة الدقيقة من قبل والده عبد العزيز .. كان يأخذ بيده في كل صغيرة وكبيرة، عامله كصديق له، يتشاور معه في أمور حياته الخاصة والعامة .. أكمل سعود دراسته التعليمية بدار المعلمين في بغداد، بعد جهد ومشقة في إقناع والدته على موافقة سفره في البداية؛ لم تستوعب فراق ولدها الوحيد، وبعد تخرجه منها كمعلم صدرت موافقة تعيينه في مدرسة ابتدائية مختلطة بهور (الچبايش) في منطقة الأهوار الواقعة في محافظة الناصرية بجنوب العراق .. خاف عليه والده كثيرًا أن يذهب لمثل هذه الأماكن النائية البعيدة عن الزبير، والتي تتنازعها التصفيات العشائرية والصراعات الثأرية بين سكانها، تصل في بعض الأحيان لدرجة استخدام الرصاص والقتل العشوائي دون تفريق في الانتماءات، ورغم عدم قناعة ابنه سعود بمثل هذه المدرسة البدائية، التي بذل مجهودًا كبيرًا في الوصول إليها، بتنقله بين مناطق الأهوار الكثيرة، ولم يصدق بوصوله إليها حتى شاهد علم الوطن يرفرف

فوق أرض مقرها، المكون من (صريِّفتين) كبيرتين، والثالثة صغيرة تُستخدم كمقر للإدارة، لثلاثة معلمين ومدير بدون خدمات فراش، تنقلات أرهقته كثيرًا، حُفتْ بالمخاطر من كل جانب. بدايةً تَنقل بعدة قوارب صغيرة، القاربُ الواحد منها يُسميِّه أهل الأهوار (مَشْحُوف)، لا يمكن تأمن شر الجواميس الجائعة والخنازير البرية الهائجة فيها، ناهيك عن ذلك الناموس الطائر، الذي سرق منه ساعات الليل في مكافحته وتعقب لسعاته المؤلمة، وهذا السمك (الزفر) برائحته الذي اتخم معدته في وجباته الغذائية الثلاث، أجمل ما في ذكريات سعود عن الأهوار – والتي دونها في مذكراته اليومية باسم (النزهات الهوريِّة) – عندما يتبرع له طلابه بأخذه بنزهة مائية (بالمشحوف)، فيأخذون معهم البنادق لصيد البط والدفاع فيها عن أنفسهم من الخنازير البرية الشرسة، التي لا تعلم متى يحلو لها الوقت بمهاجمة الإنسان، فكان جُل وقته يستمتع بجمال الطبيعة وبسماع أنغام صوت السيدة أم كلثوم وأغنية فكروني.

***

مزرعة (الحمد لله)

طلب عبد العزيز من ابنه سعود أن يترك سلك التعليم في مدرسة الهور التعيسة، والتي تحفها المخاطر من كل جانب، وأن يعمل معه في مزرعتهم الكبيرة (بسفوان)، والتي آلت فيما بعد إلى الإفلاس بدايةً، ثم إلى البيع لاحقًا، بعد مرور سنتين عجاف على محاصيلها الزراعية؛ بسبب تعرضها للعاصفة الثلجية التي اجتاحت العراق، بما فيه مدينة الزبير لمدة ثلاثة أيام متتالية، فحرقت شُجيرات الطماطم والقرع وباقي المنتجات الزراعية في ذلك العام، فتضرر - بسببها - الكثير من أصحاب المزارع، وفي العام التالي مباشرة اجتاحت عاصفة الجراد جميع مزارع (سفوان) بلا استثناء، فابتلع الجراد مزروعاتهم الخضراء واليابسة، مما جعل هذه الأحداث المتعاقبة تؤثر على حالة عبد العزيز الصحية، فأدت إلى شلل خفيف في جهته اليمنى من جسمه، ولكن لا زال سعود يحتفظ بذكريات بعض المواقف التي حدثت له أيام عمله مع والده في مزرعة (الحمد لله)، وبالأخص تلك المواقف السيئة التي تعرض لها .. منها ذلك الموقف الذي جعله يندم في حياته على كشف

خبايا وأسرار بعض البيوت، عندما تعطلت ماكنة ماء قليب المزرعة، التي هي القلب النابض فيها، أرسله والده لأحد أصدقائه المقربين بالزبير؛ ليأخذ منه مبلغًا من المال؛ من أجل شراء قطع غيار للماكنة من الوكيل في (العشار)، فأحداث تلك الليّلة سيئة الذكر ماثلة أمامه في صفحة حياته، كيف يكون مثل هذا الرجل الفاضل بهذه الصورة؟! وعلى هذه الهاوية التعيسة من الواقع؟! كيف يكون على هذه الهيئة الدنيئة من الحياة؟! لا .. لا .. لا يمكن أن يُصدق ما شاهده في وقتها، والمقربون من أصحاب سعود شاهدوا على وجهه بصيصًا من أثر صدمة ليلة البارحة، مختبئة خلف أسوار السرية والكتمان، محاولًا أن يُخبئ بعض أسرار خلقه عن أقرب البشر لنفسه، بعضهم تجرأ وحاول الاستفسار عن ما ألمَّ به، ولكن سعودًا أعلنها إعراضًا تامًّا عن الإفصاح بما في داخله من أسرار وخفايا، فلجأ لدهاليز الصمت كوسيلة للهروب منهم، وأجابهم بأن الأمر لا يعنيهم، وأنها أمور عارضة، وأنه ليس لديه ما يُعكر صفوة مزاجه!!

رجع سعود لبيتهم وألم حرقة الضمير تكوي أنفاسه وتُسارع في دقات قلبه، بالرغم من أن سعودًا لم يتجاوز عقده الثاني، لكنه تخرج من مدرسة أبيه التربوية، ومن جامعة مجتمعه العظيمة، ومن المجالس التي هي أعظم من المدارس، التي زرعت في نفوس أبنائها بذور الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة.

كان الجو حارًّا جدًّا، فرمى سعود جسده المنهك من التفكير على فراشه المفعم برائحة هواء الطبيعة البارد نسبيًّا، فالجو البارد في أيام القيظ له رائحته الخاصة المنعشة، بدأ يُحدق في السماء المحتفلة بطلة قمرها المنير، وينظر في نجومها العائمات السابحات في ذلك الفضاء الواسع، الذي ليس له إدراك عند البشر، مسرورة مبتهجة، فبدت كأنها مجموعة من الشابات الجميلات مرتديات ثياب بيضاء، محتفلة في عرس الظلام .. دقت أحداث شريط الليّلة الماضية باب ذاكرته، محاولةً معه إعادة تشغيل ذلك المقطع من جديد، بعد أن حاول في كل الوسائل طرد ذيول تفاصيل أحداثها وساعات آلامها، لكنه بدأ يسمع طنينها بقوة في داخله، وأحيانًا يتحول هذا الطنين إلى نباح قوي .. قطع شريط مسلسله الدامي صوت أمه سارة وهي تُنادي عليه وتُخبره، بوجود رجل عند الباب يطلبه، فنهض من فراشه بتكاسل لم يعتده من قبل، وهو يُحدث نفسه من سيكون هذا الرجل؟

فتح سعود باب الشارع وطل برأسه وجسمه ليكتشف ذلك الرجل القصير القامة، النحيل الجسم الذي عصرته الأيام بهمومها الثقيلة، منزويّا في ظل ظلام الجدار .. آه .. إنه هو .. إنه هو .. فانكب ذلك الرجل على سعود ليحتضنه بين ذراعيه وهو يبكي، ويُردد كلمات تنتابها الحياء والخجل .. ويقول:

– سامحني يا سعود.. أرجو منك المعذرة، لا يعلم بهذا السر سوى اثنين، الله وزوجتي وأنت الآن الثالث، بالله عليك أن تحفظ سري يحفظك الله، أرجوك أن تصون كرامتي وتحفظ حُسن خُلقي في المجتمع، خصوصًا والدك، أرجو أن لا يعلم من الأمر شيئًا، أسألك بالله ماذا أتى بك تلك الليّلة؟

– جئتُ لك من أجل الحصول على مبلغ من المال، بموجب وصية والدي الموجود الآن بالمزرعة في (سفوان)؛ من أجل شراء قطع غيار لماكنة المزرعة المتوقفة منذ يومين .. طرقتُ الباب ثلاث طرقات، فردت علي زوجتك حفظها الله، وقالت بأنك غير موجود، ثم حاولتُ مرة ثانية، فأجابت بأنك غير موجود كذلك، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلًا طرقتُ الباب فأجابت بأنك غير موجود، ثم فجأة سمعتُ صوتك تصرخ عليها وهي تُحاول منعك من فتح الباب، باكية تستغيثُ بك، ترجوك عدم الخروج على ما أنت فيه من هيئة، ولكنك كنت فاقد الوعي، فلم تصغِ لندائها، فخرجت لي في أبشع صورة لك رأيتها، وقلت لي بصوتٍ مخمور: هاااااه .. شعندك!! ووولك .. شتبي مذينه الليلة؟

فجف ريقي والتصق لساني في سقف فمي، ثم غرقتُ في بحر من الحياء أمامك وأمام زوجتك حفظها الله لك، لا أعرف كيف التخلص من هذا

الموقف المحرج لكما، ولا أعلم من الذي سيُنقذني منه!! ولكن بفضل الله تداركني باقي حيائي، ففررتُ مسرعًا من مسرح هول ذلك المشهد الفظيع.

غدًا في الصباح سأذهب لبنك الرافدين، وأسحب لك ما تريد من مبلغ، وأحضره لك هنا إن شاء الله (قال له).

***

مخفر شرطة العديلية

بعد إصابة عبد العزيز بشلل خفيف نتيجة ما تعرض له من خسارة فادحة في السنتين الأخيرتين في مزرعته، اضطرته هذه الظروف لبيع مزرعته بثمن بخس، وسداد جميع ما في ذمته من دين والتزامات مستحقة عليه للتجار الممولين لأصحاب المزارع، عندها كان على ابنه سعود أن يجد عملًا مناسبًا؛ لمساعدة أهله في معيشتهم، وعليه القيام بمثل هذا الواجب كباقي أقرانه في مجتمعه .. يجب أن يفكر بالذهاب للسعودية، حيث فيها أبناء عمه وإيجاد عمل مناسب هناك، أو عليه التفكير بجدية في الكويت، والعمل فيها؛ لأنها قريبة من سكن أهله؛ من أجل الإشراف على رعايتهم، وخصوصًا والده المريض، وهذا ديدن الشباب الذين يحملون شهاداتهم بعد تخرجهم، ويسافرون للعمل فيها بعيدًا عن أهلهم، وبعد مشاورات أخذت وقتًا في استعراض الفرص المتاحة مناقشتها مع والده، تمكن سعود من إقناعه بكتابة رسالة لأحد أقاربه الكويتيين، في ضرورة مساعدته في البحث عن عمل مناسب له، فالتحق في خدمة الشرطة الكويتية بمعرفة

واسطة كبيرة في وزارة الداخلية، بوظيفة كاتب تحقيق في مخفر، فأصبح يأتي في نهاية كل شهر لزيارة أهله وأصحابه الذين فارقهم.

لم يهدأ ويتوانى إلحاح (سارة) بزواج ابنها سعود من (خديجة) بنت أختها (بدرية)، وسعود يرفض مشروع الزواج في الوقت الحالي، وبالذات بمثل هذه الطريقة التي تراها والدته، وخصوصًا أنَّ في قلبه من تتربع على عرش حبه، كلما دقت أجراس الشوق وطبول الحنين في قلبه، فتح لها بابَ الذكريات على مصراعيه، فتتدافع حكاياتها في أرجاء مخيلته، وأسوأ ما في الذكريات أن تتفرعن على الإنسان، وتستعمر أرض خياله. كان سعود جالسًا يجول النظر في مكتبه، فيخرجُ في فسحة بعيدًا جدًّا عن عالم دنياه المشاغِب، الملوث بتحقيقات المجرمين وشر جرائمهم، يخرج في غيبوبة بعيدًا عن روتين نظام حياة يومه الممل، يتنفس خارج موطن الغربة التي ابتلعته في متاهاتها الغريبة، بعيدًا عن لهيب ارتفاع حرارة أجوائها، يحط رحاله المتعبة بين ضفاف تلك الذكريات، بين تلاطم أمواج صفحات أيامها المطوية بعناية .. يخلع عقارب ساعته من ثياب الوقت .. يمدُ يده بجرأة لساعته، فينتزع منها البطارية؛ كي تقف حركة لسعات عقارب الزمن في حيز دائرته .. تتعالى في أعماق صدره صيحاتٌ وهتافات، من داخل أسوار نفسه غير المرئية، يُردد أسماءً بلا معنى، وأماكن بلا قصص، يُردد أسماء رواة بلا رواية، فما فائدة المسانيد بلا متن يا سعود؟

يتناوب دينمو عقله على تشغيل ذاكرة جسده المتكور فوق أريكته، يعيش في صراع شبه دائم ما بين ثكنات الغيبوبة ونبضات جُند الحضور، يأمل في قطرات حب مهاجرة من تلك الأرض المقدسة، يأمل في لقاء هانئ قريب، يروي له ظمأ عطش الأيام الجافة، فإرادة الحياة أقوى من الموت ..

من نافذة مكتبه في مخفر شرطة العديلية يطلُّ على حديقته البسيطة التي اعتنى بها، جلب لها من جميع شتلات الزهور الملونة الفواحة بعطرها من بساتين (أبي الخصيب) بالبصرة، فتقاطرت عليها أسرابُ النحل من كل مكان، وطائر الوروار الذي نصب عش عشقه بين أغصان أحد أشجارها، يُهاجم خلية النحل، ويفترس ما يشتهي من نحلها، يُراقب صغار جيرانه من عصافير الدوري، تلتقط حبات البذور من على وجه الأرض التي أهدتها لهم شجرة الصفصاف، التي تقف كشرطي مرور في مقدمة حديقته، وأشجار اليوكالبتوس الشاهقة الارتفاع، الممتدة على جانبي السور أصبحت ملاذًا للكثير من الطيور التي تنشد الراحة، تُطلق صرخاتها العالية وهي تتقافز من هنا وهناك، يُراقب (الفاخات) كيف يلتقطن الديدان من بين أغصان شجرة النبق الكبيرة التي أصبحت مأوى للكثير من الطيور ، تقفز (فاختةٌ) من غصن إلى غصن، بعد تناول وجبة غذائها من ديدان شجرة السدرة، تقتربُ من ذكرها المنشغل بنبش بقايا حُطام شرنقة، يبحث بعناية فائقة عن نبض دودة معلبة، فيها أنفاس متحركة، وعلى غفلة منه تُمطره بمداعبة خفيفة من رقبته بمنقارها الصغير، مداعبة حب ومعرفة، لا يأبه

لمداعبتها ويتركها تتسلى بكل حرية في تحقيق شهوتها، ثم شيئًا فشيئًا تتباعد عن نظره؛ حياء منه، عندما علمت أنه متطفلٌ وفي فضولٍ يُراقبهما ..

هما يعيشان في حبٍّ ومرحٍ وسعادة، فالسور آمن، هما في حرم القانون، وفي حديقة مخفر شرطة، فالمكان محرر من ظلم الصياد ومن رق الأقفاص الحديديَّة، وكلنا نعلم أن (الفاخات) وحدهن شركاء حُب معنا في هذا المشوار ..

يطلُ سعود برأسه من نافذة مكتبه، مخاطبًا (فاخته):

– أيتها (الفاخة) القادمة من أبي الخصيب .. لتفتح لنا الطبيعة ذراعيها بدون فلسفة وصاية علينا من أحدٍ، بدون طقوس اجتماعية مبتدعة تُلزمنا فيها، بدون جلسات تأمل وتفكير يتماديان في تأخير رحلة قطار تحقيق أحلامنا الوردية ..

لكن يا سعود، هل كل هذا خارج اختبار الطبيعة؟ هل كل هذا حملٌ خارج طبيعة الحياة؟

فالحديقة عطشى إلى قطرات حب، فالحديقة في شوق لمشروعية حكاية ذلك الحب الخالد، ذلك الجنين الذي يبحث عن شهادة ميلاد، ولكن كيف يمكنه إقناع والدته بأن ابنة خالته ليست من نصيبه؟

يقطع عليه أفكاره ضابط المخفر، مناديًا عليه باسمه، طالبًا إياه الحضور لكتابة محضر تحقيق بجريمة قتل حدثت ليلة البارحة ..

- اسمك كاملًا، وعنوانك بالشغل وسكنك بالتفصيل ..

- جاسم .. وزارة الكهرباء .. منطقة الخالدية.

- ما الذي حدث بالضبط؟

- مدري، كنت قاعد عصر اليوم بگهوة سوق الغَرابلي كعادتي، سمعت خبر المرحوم!! گالوا لگوه بالشاليه ميت ..

- من اللي گال؟

- أكثر من واحد.

- حددهم لي لو سمحت؟

- حمد .. مشعل .. حسين ..

- ليش تگول ميت وما گلت مگتول؟

- هم بالگهوه گالوا چذيه، كان سكران وانتحر، يدعْ نفسه بالبرچه الخاليه من الماي، إنشگ راسه وگقعد ينزف لين ما مات، وكان الشاليه مگفول من الداخل (بالصرگي).

– ولده الچبير أنكر الانتحار، واستبعد فكرتها وگال: ما فيه مبرر لانتحار المرحوم أبوي أبدًا!!

– مدري ..

– من كان معاه؟؟

– گالوا: ما وياه أحد، وبطريجه للشاليه وگف عند البقالة يشتري أغراض منها، وگال البياع عنه: كان بروحه بسيارته وما وياه أحد، وگالوا الربع بالگهوه: گبل أسبوع شافوا معاه فلوس وايده ولا يدرون وين وداها!!

– وحنا هنيه نحقق بقضيتين، جريمة فلوس مفقودة وجريمة قتل متعمد ..

– شنو صلتك فيه؟

– معرفة قديمة، ورفيج عمر من أيام الدراسة بثانوية كيفان.

– وين كُنتَ يا عم البارحة؟

– أنتم تدرون، كنتُ برحلة عمل بدبي لثلاثة أيام، واليوم الصبح رديت ..

– يه .. شحقه تگول: أنتم تدرون.

- لا يمكن يخفى عليكم سفري، وروحتي وييتي.

- يا عم .. راح نستدعيك بالمخفر للتحقيق معك ومع كل رفجانه وأقاربه .. واتخذنا الإجراءات اللازمة بعدم السماح بسفر كل من له علاقة بالتحقيق.

- من متى صار رفيجك الميت يمنعك من السفر؟

- هذه تعليمات وصلت لنا ..

فجمع جاسم حبات سبحته الصفراء في راحته، وضغط عليها بقوة، وتنفس بعمق وكأنما كان محبوسًا في زنزانة صغيرة موبوءة يخشى التنفس فيها، وقاد سيارته الخاصة لمنزله بعد أن دس في فمه سيجارته التي صام عنها خلال فترة التحقيق، وذهب لقضاء قيلولة ساخنة مُزعجة، عبثت فيها شياطين السجون وعفاريت المقابر الضالة بحرية تامة ..

***

وسقط الهدب

يعود لمكتبه المركون في مؤخرة المخفر، المطل على حديقته الخاصة، بعد عاصفة من التحقيقات المرهقة المملة، والتي عادة لا تنتهي بجلسة واحدة، عاد بمشاعره الإنسانية المرهفة بين ضبابية مجرم مراوغ يُجيد التلاعب في الأقوال، ويعرف من الأدلة ما فيه الكفاية لبراءته، وبين بريء جاهل مسكين لا يعرف من الأدلة شيئًا، كي يدفع التهمة عنه .. عاد هاربًا من تلك الأجواء المشحونة بالكراهية والعداوة، فاتحًا سجل ذكرياته من جديد؛ ليقطف من أيام ربيعها بعض الثمرات، وجاءت سيرته مع يوم (سقوط الهدب) وذكريات أيام دراسة الثانوية .. يوم اعتاد أن يذهب مع رفاقه كل جمعةٍ في أيام الربيع للكشتةِ، وعادة ما تكون كشتاتهم في أثل بر (چوبيدة) أو (القريطيات)، وبين ساحتي باريس وروما - كما أطلق عليهما الشباب - هؤلاء الشباب من يقومون بمسؤولية تحميِّل وإنزال مستلزمات الكشتة من فوق سطح (الباص)؛ من براميل ماء وحافظات الأكل والسجاد، وكان سعود حريصًا جدًّا على أن يأخذ دراجته الهوائية ذات اللون الأسود معه دائمًا؛ فهي عربة سياحته الخاصة لتنقلاته في البر.

في ذلك الأسبوع قرر أخوها الكبير منع جميع شباب السكة من الذهاب معهم في (الباص) كالعادة، باستثناء أقاربهم، بعد أن تلقى رسالة وشاية ملعونة من إحداهن ممن ملأ قلبها الحسد والغيرة منه ومن أمثاله، ممن لهم قصص وحكايات رومانسية مع غيرها من بنات الحي ..

في صباح الجمعة وقف عند الشبّة (عمود الكهرباء) في رأس (العاير) ينظر إليهن بحزنٍ شديد، وهن يتسابقن في الصعود للباص وكل واحدة منهن تقول للأخرى: هذا مكاني حاجزته من أسبوعين، وفي بعض الأحيان يقرعن بينهن لمن تجلس بجوار الشباك .. شاهدها من بينهن ترتدي (التنورة) البيضاء والقميص الأحمر الطويل الكم أثناء صعودها للباص، فاحتار ماذا يفعل بمثل هذا الحصار الغاشم!! ذهب لأحد أصدقائه المقربين له، ابن خالته (ماجد)، الذي يعتبره أخيه بالرضاعة حسب رواية الأمهات، الذي يسكن في منطقة (عتيِّة)، وأقنعه بالذهاب معه لبر (چويبدة) على دراجته الهوائية، قَبِلَ صديقه دعوته دون التفكير في مؤونة زاد مثل هذه الرحلة، (چويبدة) تُعتبر أعظم منتزه بري في الزبير أيام الربيع، ينتشر فيها مجموعة من مناطق الأثل، وكل مجموعة من الأثل المتجاورة في المنطقة يُطلقون عليها بقشة، وهناك في داخل البقشةِ المطلة على ساحة باريس وبين أشجار أثلها المترهل وأغصانها الكثيفة المتداخلة ركبتْ سباچة دراجتَهُ الهوائية بمعية جواره ورعايته، وسار بجنبها وقلبه

يشتعل خوفًا عليها من السقوط، وبين أغصان الأثل سقطت - كما توقع - وتساقط معها الهدب ..

***

سباچـة

فشلت أم سعود في إقناع ولدها بالطرق الدبلوماسية في الزواج من (خديجة) بنت أختها التي تسكن في منطقة عتيِّة، فوصفت له محاسنها ومناقبها وجمالها، وهو يعرفها جيدًا، فاعتذر لها بأعذار لم تستوعب فهمها بقوله:

– يمه، كل حياتي أعاملها كأخت لي، تذكرين جارتنا أم إبراهيم الله يقومها بالسلامة ويفكها من عوگها لمن سألناها عن الرضاعة مع أخوها، قالت: بأن أمها رضعتني مع (أخوها) ماجد ..

– أعرف كلش زين وأتذكر رضعاتها لك، رضعتك رضعتين بس، لمن صار عندنا بذاك اليوم عزا وحطيتك في بيت أختي بعتيِّة، فرضعتك الرضعة الأولى بالعصر والرضعة الثانية بالمغرب، والسالفة بيني وبينك، يمكن صدرها كان خالي من الحليب، رضعاتها لك كانت عگب ما شبع ولدها مجيّد من صدرها ..

- يمه، لا يمكن بيوم من الأيام تكون خديجة زوجة لي وأم لعيالي، صدگيني أستحي منها؛ لأنها مثل أختي!!

فما كان منها غير محاولة استدراجه لموطن رغباته؛ لمعرفة ما يُخبئه في داخل دهاليز قلبه من أسرار النساء، فاستغلت جلوسه معها أثناء انشغالها في لف (الدولمة) .. الأكلة المفضلة له في كل أيام السنة ..

- سعود، أنا أمك، گل لي بصراحة، بگلبك وحده تحبها عشان أخطبها؟

- لا يمه لا.. أهم شيء رأيچ بزوجتي ورضاچ علي مقدم على كل شي، وموافقتك أساس اختياري لمرتي ..

- كن صريح معي سعود، بخاطرك وحدة ودك أخطبها يا وليدي؟

- بصراحة .. بصراحة يمه، فيه أكثر من بنت بزبير كل الشباب يتمنونهن، وتعرفين الزبيريات كلهن (سنع ومنع ويهبلن) على گولتكم يا الحريم، ولا أدري عنهن يقبلني ولا يرفضني ..

- هـووّ!! وشناصك؟ سليِّمه صكتهن وكرفتهن ومالت على اللي يابهن بعد، وطمتهن هَمْ إذا عيِّن!! يعيِّون ليش؟ وشگاصرك يا سعود؟!

سكت سعود قليلًا وكأنه يستعيد في مخيلته صورًا من ذكريات سباچة، والابتسامة تملأ وجهها الجميل، الذي يحتل جزءه المجاور للفم خال صغير، التي اغتصبت قلبه وروحه، ووقع في شباك حبها، ثم قال:

– تذكرين سباچة يارة بيت خالتي يوم طلبت منچ أمها أدرسها رياضيات؟

– ويييه، هذي سنين ومنين راحت عليها، وشذكرك فيها عشتو؟

– من ذيك الأيام وسباچه عاجبتني، وشايفها عاقلة ومؤدبة، ولو مرت ما تشيل عيونها من القاع أبد، وداشه حيل خاطري .. والراي لچ يايمه بالاول والتالي ..

سعود لا يزال يعيش حُب أيام الإعدادية، لا يزال يذكر تلك اللحظة التي تخثرت فيها نظرة الحب في قلبه، منذ يوم أن وطئت قدمه أرض بيتهم، من أجل تدريسها مادة الرياضيات .. منذ ميلاد ذلك الحب العظيم وعلاقته معها لم تتوقف عند حاجز التدريس وكتاب مادة الرياضيات، فرسائل الحب والغرام لم ينقطع بريدها اليدوي بينهما، منذ أن فتحت له قلبها في بيتهم، وقالت له:

– هذه المرة الثالثة التي تشرح لي المعادلات ذات المجهولين، أشعر بملل من ثقل دم هذه المادة، أشعر أن التمارين صعبة الحل!! ولكن عندما تبدأ بحلها أشعرُ بأنها سهلة الفهم والهضم، يـا الله .. متى أفهم مادة الرياضيات؟ متى أفهم هذه الرموز والشفرات والمجاهيل؟ ليتهم ألغوا هذه المادة من دراسة الإعدادية، هل ضرورية مادة الرياضيات لطلاب الأدبي مثلي؟ يقولون في السنوات القادمة سندرس أشياء صعبة فيها

لوغارتمات، وبعدها يمكن تفاضل وتكامل، ولا أدري ماذا سيواجهني من مشاكلها في الجامعة!! وما هذه الرياضيات إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم يا سعود .. أنا لا أعرف الفرق بين الأس والجذر فيها ..

- سباچه .. هوني الأمر .. المسألة ليست بالمعقدة كما تظنين، الرياضيات مادة سهلة الاستيعاب والفهم ..

فيتناول من يدها كتاب الرياضيات الذي كانت تحتضنه تحت سقف صدرها، يتعقب آثار ملامس أصابعها فوق غلافه الشفاف، يفتحه برفق؛ ليقرأ اسمها في ركن الزاوية اليسرى من أول صفحة منه .. يبدأ في شرح مادة الدرس الجديد، تسقط ورقة مسطرة منزوعة من دفتر كانت مدسوسة بين صفحاته بعناية وكأنها تعويذة مباركة!! يلتقطها من على وجه الأرض بحنان، ويُعيدها بهدوء لمخدعها ثانيةً دون أن ينظر ما فيها من شخبطات ..

سباچه، تُراقب حركته بدقةٍ متناهيةٍ بكل تفاصيلها، وكأنها تُعاتبه بينها وبين نفسها وتُقاضيه، لمَ أعدتها لسجنها ثانية بعد أن حررتها جيوش أناملك من قيد الصفحات؟! لمَ لمْ تقرأها في حينها بعد هذا التحرير مباشرة، وتقطف من ثمارها اليانعة؟!

يبدأ في شرح الدرس تاركًا لنظرها حُرية اكتشاف مراسمه، دون تشريدٍ لعصافير عينيها التي تُزقزق فرحةً في شجرة وسامته .. شاب حليق الشارب، طويل القامة، مفتول العضلات ذو صدر مرتفع وكأنه أحد

المصارعين، أسود الشعر الطويل، أبيض البشرة .. يعقبها بوضع بعض التمارين لدرس اليوم كعادته، يتركها لوحدها منشغلة بحل التمارين ويتصنّع تصفحه للكتاب ذاته، كأنَّه يبحث عن مسائلٍ مهمَّةٍ ليشرحها لها، تذهب أطراف أصابعه بخفية لمخدع تلك الورقة المدسوسة بين الصفحات، ينفرد فيها بين صفحات الكتاب، بعيدًا عن رقابتها له، يفتحها بتطفل ليقرأ ما كُتب فيها، فُوجئ عند فتحها، لم يجد فيها غير حرف (أ) بالخط الأحمر العريض، تحته صورة لقلب حُب مضروب بسهمٍ طائش من جهته اليسرى، وخارج من الجهة اليمنى، ينضح من مكان جُرحه نقاط حمراء اللون رُسمت بأحمر الشفاه، يُعيد الورقة بهدوء ورفق لمخدعها مرة أخرى؛ خوفًا من أن يتسرب أحمرها المتناثر لملامس أصابعه ..

شغلت فكره هذه الوريقة الصغيرة، نصب خيمة خارطة الاحتمالات؛ لتحليل هندسة بنائها .. أخذت تلك الورقة ذات الرموز القليلة السريعة مساحة كبيرةً من تصميم هيكل فكره، منتظرًا أن يأتي المساء، أسئلةٌ كثيرةٌ هجمت عليه لم تجد لها جوابًا، كأنها أرواحٌ زُرعت في منفى!! يا تُرى سباچة من تُحب؟ يا تُرى من يحبها؟ يا تُرى .. يا تُرى، فتكاثرت فصيلة ظن الاحتمالات في خلوته ..

يذهبُ إلى بيتها في الليلة التالية ليشرح لها الدرس الأخير، الدرس ما قبل الاختبار النهائي لمادة الرياضيات، يسحب كتابها المركون تحت رف

الأمس نفسه، وكأنه يتنفس من تحت ذلك السقف المرتفع، يفتحه ليبدأ درس اليوم وكله أمل بأن يجد المفاجأة نفسها، لتهدأ عاصفة الاحتمالات قليلًا في دائرة شكه .. البعضُ يهاب حدوث المفاجأة، والبعض الآخر ينتظرها بشوقٍ، تسقطُ ورقةٌ ملوّنةٌ هذه المرة بكل هدوء من جوف الكتاب المعطر، كما يسقط المطر في أيام الربيع دون عواصف وصواعق، لا كما يأتينا المطرُ في الرياض، بعد قافلة مزعجة من العواصف الترابية، يسقطُ مع الورقة قلبه وعقله، لتلحقها يده بفعل جاذبيتها .. تسقط مرتعشة بلا شعورٍ؛ لتلتقطها قبل وقوعها على الأرض، وكأنها ورقةٌ مقدسةٌ، يفتحها بعيونٍ مسرعة دون خشية من رقابتها الصارمة له في وقتها، لم يجد فيها ما يُعكر نقاء بياض صفحتها غير (أ.. أ)، لم يجد غير حرف الألف الذي فقس فيها ألفًا آخر بين ليلة وضحاها، يرفع نظره إليها، فتبتسم في حياءٍ .. فيتنفس الجنينُ في ذلك اليوم ..

سباچة كغيرها من بنات جيلها، عاشت مستمتعة بأوقاتها في مرحلتي طفولتها وشبابها، مارست بعض الهوايات المحببة لها كأترابها، وأكثر ما عشقت وأنفقت عليها مصروفها هواية جمع صور الممثلين والممثلات والمطربين والمطربات، ولم تتنازل عن حب هذه الصور حتى بعد زواجها، إلا عندما شعرت بغيرة زوجها من هؤلاء الممثلين والمطربين، حتى حبها للمطرب عبد الحليم خبأته في قلبها عنه؛ خوفًا من غيرته عليها، مثل هذه الصور تُباع وبظهرها علك في داخل ظرف مُغلق، لا يشف عن نوعية

الصورة التي بداخله، تعتمد على (الحظ والنصيب)، فجمعت صورًا كثيرة ولصقتها في دفتر خاص، أوراقه ملونة، وتبادلت بعض الصور مع صديقاتها ومعارفها، ومنهن جارتها خديجة التي تمتلك مثل دفترها، ويحتوي على مثل صورها تقريبًا، ولكن كان ينقص خديجة في دفترها صورة عمر الشريف، المكررة نفسها عند سباچة، التي رفضت مبادلتها؛ لتُحافظ على منسوب الأفضلية والتميُّز في دفترها، رغم أن خديجة عرضت عليها ثلاث صور مقابلها، وكان من ضمن هواية سباچة حبها وشغفها بسماع أغاني عبد الحليم حافظ ومتابعة أفلامه، القديمة والجديدة، وعند ظهور فيلمه الأخير في سينما الكرنك بالعشار، لم يهدأ لها بال، واستنفرت ذكاءها بإقناع أخيها الكبير حمد بمشاهدة فِيلمْ أبي فوق الشجرة، ومن ضمن هوايتها كانت تعشق قراءة مجلتي الشبكة والموعد، ومجلة العربي الكويتية ..

بناءً على طلب سعود، تقدم والده لخطبة جارة خالته سباچة من أهلها بحضور بعض من أقاربهم، وتمت مراسم القبول بسرعة؛ لمعرفتهم الجيدة بالشاب سعود، وبأصله وفصله، وتم زواجه (بزفة) بسيطة رائعة كما يحدث في غالب الزيجات في مجتمعه .. تبدأ مسيرة عرس الرجال من باب المسجد إلى بيت أهل المعرس، سيرًا على الأقدام بعد صلاة العشاء مباشرة، يمشون ببطء شديد، وكأنهم يريدون أن يتمتعوا بكل خطوةٍ يخطونها، يصاحبهم اثنان من الشباب في مقدمة مسيرة العرس، يحملان مصباحين لإضاءة الطريق لهم، رغم أن الظلام لم يكن دامسًا؛ إذ كانت حزم فضية من الضياء

تنبعث من القمر والنجوم المتناثرة حوله، وترافقهم في هذه المسيرة فرقة العَرضة الزبيرية المشهورة ذات الجذور النجدية، وبحضور ثلة من أصحابه وأقارب العروسين، وبعد وصلوهم لبيت المعرس، وزعوا عليهم الشراب البارد فقط ..

بعد مرور يومين على عرسهما، سافر معها لمدينة بغداد؛ لقضاء أيام شهر العسل كما جرت العادة عند بعض المثقفين، وسكنا في فندق سرسنك، الواقع في شارع النعمان، المتفرع من شارع الرشيد، القريب من فندق كيفي المشهور عند أهل الزبير، الذين يفضلون الإقامة فيه عند زياراتهم لبغداد .. قضيا أسبوعًا كاملًا في بغداد، كانت من أجمل الأيام بالنسبة لهما، وما كتباه خلف الصور الفوتوغرافية شهادة على تلك الذكريات الرائعة .. قاما بزيارة معظم المتاحف العراقية في بغداد، وقضيا وقتًا ممتعًا في حديقة الزوراء المشهورة، بما فيها مدينة الألعاب وحديقة الحيوان، وذهبا لسوق (الشورجة)؛ لشراء هدايا منه، وزارا معظم أسواق بغداد، مثل سوق الوراقين للتحف القديمة، وسوق البزازين المختص بالأقمشة، وشارع المتنبي الذي يغصُ بالمكتبات الثرية بكتبها، والتي بعضها تنشر كتبها على الرصيف، ويعجُ هذا الشارع بالأدباء والمثقفين، وذهبا لشارع النهر؛ حيث المحلات المتعددة البضائع، وحضرا أفلامًا رومانسية وكوميدية كانت تُعرض في دور السينما المنتشرة في شارع السعدون، وتناولا أكثر من وجبة عشاء للسمك (المسقوف) في مطاعم

شارع أبي نؤاس، الواقعة على ضفاف دجلة، والتي ذكرت سعود (هذه الوجبات) بأيام الأهوار، واستمتعا بجولة نهرية مسائية في مياه دجلة لمدة نصف ساعة، ثم عاد سعود قافلًا لعمله في الكويت؛ ليبحث له عن سكن لحياته الجديدة بعد أن طلق حياة العزوبية بالثلاث، فوجد ملحقًا صغيرًا في منطقة الروضة قريبًا جدًّا من عمله ..

***

منطقة الروضة

دشنت الحياة في أحشاء منطقة الروضة بدولة الكويت بيتًا جديدًا وأسرة صغيرة، ينبض فيها الحب والوفاء والإخلاص، اثنان مثالًا للزواج الناجح في كل صوره، فحط طائر السعادة مغردًا في هذا الملحق المتواضع في أثاثه ومكوناته، المركون بإهمال في زاوية من (حوش) الفيلا ذات المساحة الكبيرة والبناء الفخم، هذا الملحق المكون من غرفة نوم صغيرة، احتار سعود في كيفيَّة حشر قطع أثاث الغرفة فيها، والتي قام بشرائها من محل مفروشات في منطقة حَولي؛ مما اضطرهما أن يتنازلا عن أحد الطاولات الجانبية للسرير، ومطبخ صغير، ودورة مياه غير مكتملة المنافع، هذا الملحق محاط بسور ارتفاعه متران، يقتص جزءًا صغيرًا من (حوش) الفيلا الواسع، إن أرادت سباچة أن تخرج من غرفتها وتذهب لأحد منافع الملحق، عليها أن تستر نفسها؛ خوفًا من تلصص العيون المختبئة خلف الشبابيك الزجاجية العاكسة .. تعودت أن تستر شعرها القصير الذي يضفي عليها جمالًا أخاذًا يصعب تجاهله، وباقي جسدها بثوب الصلاة، الذي أهدته لها مع سجادة عمتها (سارة) .. وعدها سعود قريبًا بتحسين

مستوى سكنهما مع أول زيادة سنوية في راتبه، رغم أنها لم تتذمر من هذا الوضع الراهن، إلا أنه شعر بمعاناتها ..

تمرُ الأيامُ مسرعة كعادتها دون انتظار لأحدٍ، ودون أن يشعر الإنسان بزحفها السريع نحو نهايته، ولا يمكن له أن يعلم كيف ستكون له هذه النهاية، وهكذا سُنة الحياة، اقتضت – بتقدير من رب العالمين: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد]. وبعد أن منَّ الله عليه بالزيادة السنوية ينتقل من ذلك الملحق المكشوف للسكن في شقة بمنطقة الروضة كذلك، تستره وتؤويه مع زوجته سباچة، وبعد مرور خمس سنوات من زواجهما يتبعه الأرق والقلق في عدم حَمل زوجته، فالكل يسألها ويسأله عن الحمل وأخباره، وأصبح الأهل والأقارب والأصحاب، والقريب والبعيد لا هم لهم غير سؤالهما عن هذا القادم من رحم سباچة والحديث عنه، سواءً أكان ذكرًا أو أنثى، وكأنه مُؤشر قياس اجتماعي لدرجة نجاح هذه الحياة الزوجية السعيدة، لدرجة أنهما امتنعا عن الذهاب للزبير في كثير من المناسبات؛ تجنبًا لمثل هذه الأسئلة المحرجة، وهكذا غدا بعض الناس ينشغلون بهموم ومشاكل غيرهم؛ هروبًا من همومهم ومشاكلهم الخاصة، وجاءت أعياد ومناسبات كثيرة دون أن يفكرا بالذهاب لروية أهليهما كعادتهما. شغل حمل

زوجته تفكير سعود، وخشي أن يكون عُقم والده قد انتقل إليه عبر الجينات الوراثية اللعينة ..

ومرت الأيام والشهور، وسعود يعيش في منسوب ضغط هذا الهاجس النفسي، بين الارتفاع والهبوط .. قضى معها خمس سنوات يئست من الإنجاب منه، رغم أنَّ الكشوفات الطبية المختبرية كشفت عن سلامتها من العقم والأمراض الوراثية .. قلبه يتقطع ألمًا كلما شاهد أطفالًا صغارًا يفترشون حضن آبائهم، أو لمح أبًا يلعب مع طفله الصغير في الحديقة القريبة من شقته .. كم تمنى أن يُشاهد وريث عرشه يمتطي ظهره كحصان له، ويقول له: (إيشش)، أو يُنادي عليه: بابا .. بابا .. يبه .. أبوي .. داد ..

أكثر ما أتعب سعود نفسيًّا ودثر وجهه بكفيه، وصم أذنيه بإبهاميه عندما علم بما فعلته والدته ببراءةٍ من أجله، لقد أرسلت قارورة ماء صغيرة لأحد أصدقائه المقربين له، طالبة منه سؤال أصحابه القراءة والنفث في الماء من أجل صديقهم سعود، ظنًّا منها بأنَّ جحيمَ العينِ ولهيبها قد أصابت ابنها من أحدهم بقصدٍ أو بدون قصد، فحسب ظنَّها أنه كان متفوقًا في دراسته وناجحًا في حياته بين أصحابه، فأصابهُ العقم منها، رغم أنَّها غير متأكدة من عدم إنجابه، ومعتقد العين هذا من الموروثات النجدية التي هاجرت معهم وتناقلتها الأجيال، فأصبحوا ينسبون كل مرض وكل عثرة وكل فشل في الحياة للإصابة بالعين الحاسدة .. هم توسعوا في دائرة تأثيرها وخطرها على

المصاب بها، وخافوا منها كثيرًا وأعطوها حجمًا أكبر من حجمها الطبيعي، رغم شدة نبض مشروعيتها في القرآن والسنة النبوية المطهرة، كما قال الله تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مخاطبًا أبناءه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾[يوسف]..

بعضُ أصحابه ضحك من تصرف والدة سعود، وعلق ثانٍ على هذا الموقف بأن الآباء والأمهات هم من يتلقى ضربات أبنائهم الموجعة، ونفث ثالثٌ في ماء القارورة مجاملة لأم سعود ولصديقهم سعود، ثم قرأ سُورَ المعوذاتِ التي يحفظها، مضافًا إليها سورة الفاتحة بصوتٍ مسموع، وتفلَ رابعٌ ما جاد به ريق فمه دون تحريك لبراطمه، وطَالبَ خامسٌ من ربعه باستشارة طبيب مختص لمثل هذه الأمراض لعلاجهما، وضحكَ سادسٌ كان يُحرك حبات مسبحته الصفراء بين أصابعه بخبرةٍ، ثم همس في أذن صديقٍ له كان يجلس بجوارهِ، يمخر الدخان الكثيف من مناخره، وقال:

– ماذا يُريد سعود أكثر مما أعطته هذه الحياة؟! لقد تزوج من المرأة التي كان يحبها ويعشقها، ووجد عملًا مناسبًا في الشرطة الكويتية، ألا يكفيه هذا؟!

سفوان

أقبل الربيع في وقته، وكعادته من كل عام دون تأخير في مدينة الزبير، يأتي ببساطه الأخضر الجميل، وزهوره البرية ذات اللون الأصفر والبنفسج، جاء بعد عدة أمطار متتالية في أيام الوسم، بعد فصل شتاء شديد البرودة، استهلك كثيرًا من مخزون التدفئة الشتوية، من فحم وحطب وقاز، نزل عليهم مطرٌ (ديم) ثقيل، لم يتوقف لعدة أيام، كأنما السماءُ كانت غاضبة من إلحاح بعض المتوسلين في صلاتهم بإرسال المطر لأرضهم، فتجود عليهم الأرضُ مما في داخل باطنها دون تقتير .. يفرح الناس في أيام الفقع .. ينتشرون في البر بأماكن تواجده؛ لجمعه ثم طبخه ..

اعتاد سعود أن يأخذ جزءًا من إجازته السنوية في أيام الربيع من كل عام، فيخرج في مخيم مع أصدقائه في أحد مزارع سفوان، أو ينصبون مخيمًا في (چويبدة)، أو في (القريطيات)، وأكثر أصدقائه من الموظفين الذين يعملون في الكويت أو في السعودية، قليلٌ منهم يعيش في الزبير لظروف أجبرته على ذلك أو لمصلحة ألزمته على البقاء، وعادة يتبرع أحدهم بتنظيم مثل هذا

المخيم الربيعي، وكان اختيارهم لهذا العام في مزرعة أبيه سابقًا بسفوان دون علمه المسبق في الاختيار، التي باعها قبل سنوات، أيام إفلاسه؛ مما سبب له جلطة دماغية خفيفة، أقعدته في البيت مريضًا شبه مشلول، ومنذ إفلاسه بدأ يشعر أنه غريب في بيته، وغريب بين أهله، وغريب عن نفسه كذلك، ولم يفهم سر هذا الشعور الجديد؛ لعله أصبح رجلًا آخر، رجلًا لا يشبه ما كان عليه سابقًا، لم يعد يملك سوى ذلك الماضي الذي يتشبث به، كي يعينه على عُبور جسر حياته، يومًا بعد يوم وحيدًا ومهزومًا داخليًّا، معتمدًا في معيشته على معونة ما تجود به مساعدات أيدي المحسنين من أهل وأقارب ومعارف، حتى تمكن ابنه سعود من العمل في شرطة الكويت، فكفاهم الله شر حاجة النَّاس .. تذكَّر سعود ألم والده يوم بيعت هذه المزرعة من أجل الوفاء بالديون، وتذكر ذلك اليوم المشؤوم، عندما تعطلت ماكنة هذه المزرعة، واحتاجوا لقطع غيار لها من الوكالة، فأرسله أبوه لصديقٍ له في الزبير؛ ليأخذ منه قيمتها، ويشتري قطع الغيار من العشار، وسعود لأول مرة يدخل مزرعة أبيه بعد بيعها، فحمد الله أن اسمها لم يغيّره المالك الجديد، كما تُعلن لهم الكتابة المنقوشة في اللوحة الحديدية الترحيبية المنتصبة عند مدخلها: (مزرعة الحمد لله ترحب بكم)، هاله ما شاهد فيها من التحسينات التي نفذها صاحبها بعد شرائها من والده، وكم أكله الألم عندما استعاد ذكريات والده فيها، كيف كان يصول ويجول بنشاطٍ وحيويةٍ في أرجائها، مشمرًا عن ساعديه بطي أكمام ثوبه حتى

المرفقين، ورافعًا أسفل ثوبه لربطه حول خصره، وعاصبًا رأسه (بغترته) بإحكام، سواءً في أيام القيظ أو في أيام البرد والصقيع، فوضع يديه على وجهه؛ كي لا يُشاهد ما حوله، من شدة ألم الحياة وضراوة قسوتها، وحوقل، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم مرات، بعد أن عجزت دموعه عن رتق مفاجآت الدهر وآلامه .. حينها شعر بأن مسامات جسده تتفتح؛ لتتحول جميعها لثقوب، يتنفس بعمق من خلالها، فأفرغ ما شحنته له عربة الذكريات من حصاد الألم والحزن، وقال محدثًا نفسه بصوتٍ حزين، وتخنقه العبرة على حال أبيه: لقد سلبت منه الحياة كل مقومات العيش، فتركته خاويًا كدمية جوفاء، ليس بداخلها شيء سوى الضعف والهوان، والشعور بالدونية والنقص، يعيش على شفقة وإحسان الآخرين .. لقد شعر بالشفقة عليه والتعاطف معه ..

وفي ليّلةٍ من ليالي جلسات سمرهم الذي يمتد عادة لآخر الليل مع أصدقائه في (البرستي)، بين دندنة عود خفيفة مصاحبة لضربات طبلة و(شربچة) بالأيدي، ولعب (بالجنجفة)، شاهدوا مصابيح سيارة تدخل المزرعة من بوابتها الرئيسة، وتقترب منهم شيئًا فشيئًا لتتوقف قريبًا من مجلسهم، يبدو أن سائقها يعرف الطريق فيها، اعتاد المجيء إليهم، وعند اقترابها منهم تعرفوا على ملاح المسلحة العراقية، الذين اعتادوا على زيارة المزرعة بين فترة وأخرى، نزل منها ثلاثة رجال من شرطة الحدود، رحب جماعة سعود بهم وضيفوهم كعادتهم، وهذا ديدنهم مع كل من يدخل

المزرعة في ضيافتهم، وطال بهم الحديث في تلك الليلة، وتنوعت بين الجميع الحكايات، رغم عدم غياب الهاجس الأمني لكلا الطرفين، وكان من بينهم رجل طاعن في السن برتبة عريف، ينظر إليهم من خلال نظارات سميكة من النوع الذي يسميه الشباب كعب (بُطل) مشروبات غازية .. غزت وجهه التجاعيد بكثرة، فتركت بصمتها عليه كرقعة شطرنج، من النظرة الأولى له يمكن معرفته أنه من النوع الذي عجنته الأيام بهمومها، فأكسبته خبرةً وحكمةً، يُجيد معرفة الطب الشعبي، وضالع في أدويته ووصفاته المجربة .. ترك (الوشمات) الخضراء حرية اللعب في جلد جسده، فرسمت في وجهه ويديه خرائطها الخاصة المتنوعة .. تجاوز حديثهم حدود مناطق الحياء، وهي من المسائل المباحة في الليل، وغير المراقبة أمنيًّا بالنسبة لهم، فعبروا بحريةٍ ولهفة لأزقة أحاديث الفراش والمنشطات الليّلية، فانهالوا عليه بالأسئلة، منتظرين منه الإجابات الطبية الشعبية، والرجل بخبرته يُفتي هذا بوصفة لتقوية عزيمته، ويُفتي ذاك بوصفة شعبية أخرى لعلاج همته من صيدلية ذاكرته الخاصة، وبعد تناول العشاء انفرد به سعود بعيدًا عن تلصص آذان رفاقه وسأله:

- شلون أعرف مقدرتي على الإنجاب؟

ضحك من سؤاله، وقال:

- سهل، تتزوج ..

- متزوج والحمد لله.

- إذا تريد تُعْرُف بيك فروخ، بالصبح وگبل لا تگضي حاجتك دورلك (طعس) رمل وبول بيه، ولو شِفِتْ بولك (الله يعزك) بيه رغوة أُعرفْ بيك وِلِدْ ..

وفي آخر الليل غادر شرطة حرس الحدود المكان بعد أن ودعهم أصحاب سعود في حفاوة مثل استقبالهم ..

لم يستطع سعود النوم في تلك الليلة .. ظل يتقلب على فراشه يمينًا ويسارًا، ولم يتمكن من إغلاق عينيه قط، وكأنه ضب هرم لا أجفان له يغلقها .. كان يقلب الأمور على جميع وجوهها، وحاول طرد هواجسه التي أحكمت قبضتها على تفكيره، وأرهقته كثيرًا قبل بزوغ الفجر الذي تأخر عن إعلان ميلاد نوره، وتذكر قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾[مريم].. فمشيئة الله سبحانه لا تحدها قيود وأسباب، فاطمأن قلبه لإرادة الخالق العظيم له، وعليه أن يأخذ بالأسباب، وفي الصباح سيعرف نتيجة فحص (بوله) في مختبر الطبيعة الذي سيقوم بإنشائه فوق (الطعس)، لا يذكر كم مرة استيقظ من نومه في تلك الليلة وهو يُشاهد زوجته سباچة تضع يدها اليمنى على بطنها المنتفخ بتأثير الحَمل، وتضع يدها الأخرى على ظهرها

من شدة الألم كما تفعل عادة بعض الأمهات أثناء حملهن، لا يعلم كم مرة شاهد ذلك المولود الذي سيحمل اسمه وهو يلعب في حضنه .. مخاوف وظنون كانت تُهاجمه بقوة؛ لتجعل الصورة قاتمة أمامه ..

ومع صوت أحد صبْيان المزرعة، في الإعلان عن وقت أذان الفجر بصوته المرتفع في: "الصلاة خير من النوم" .. ينهض سعود من مرقده، ولا يعلم هل استطاع أن يغمض عينيه أم لا، لكنه نهض بنشاط وحيوية، فأخذ معه الفانوس الذي انزعج ضوؤه من شدة تيار الهواء وحركة القاز في معدته، يذهب بعيدًا عن غُرف المزرعة عند (طعس) رمل مرتفع قليلًا عن الأرض، يُطلق عليه الصبْيان المُرقاب، فمنه يُراقب (الراگوب) هجوم الطيور والحمام البرية على المزرعة في أوقات البذار، وفي بداية جني الثمر، يقوم هذا (الراگوب) بتفزيعها عندما تحط في المزرعة، بالضرب على (تنكة) فارغة بعصاةٍ، أو رميها بصخرات، فعلق عليه أحد زملائه عندما شاهده مبتعدًا عن المكان وهو يحمل فانوسًا في خلوته:

– يا سعود، الله ستر عليك بهذا الظلام وتصرُّ على كشف عورتك للنَّاس بضوء الفانوس، حتى الچلاب هاجت، فزعتها بنور فانوسك، أسمعها تنبح خايفه منك ..

لم يلتفت لتعليق صاحبه، وتقرفص عند أسفل (الطعس) وظهره للمزرعة، مستغلًّا ارتفاع (الطعس)؛ ليستر نفسه فيه، فاستبشر خيرًا، وابتسم من نتائج تحليله الخاص.

النساة (التوحّم)

تظهر آثار ملامح الحمل على صحة سباچة، وتمر في مرحلة (نساة) صعبة جدًّا لا يفهمها بعض الرجال، وقلة من النساء تمر فيها، تتقيأ كثيرًا وتعاف زوجها، وتكره رائحته، ولا تُريد الاقتراب منه، وتطلب منه الإذن بأن تذهب لبيت أهلها في الزبير للعيش معهم خلال هذه الفترة؛ لأنها أصبحت لا تُطيق قربه ورائحة كل ما يخصه، حاولت أمه تهدئة الموقف كثيرًا بينها وبينه، بعد أن ثارت بين الزوجين المتحابين زوبعة الكراهية .. حاولت إفهامه أن مثل هذه التصرفات أمر عادي عند بعض النساء، وشيء لا إرادي عندهن، عليه أن لا يأخذ مثل هذه المظاهر النسائية الطارئة بمفهوم ذكوري، عليه أن يصبر ويتحمل، والنساء لا يتساوين في مشاكل أعراض فترة الحمل ..

يتركها مكرهًا في بيت أهلها بعد أن شدد الوصية على أمها وأمه .. قلبه يتقطع ألمًا عليها ولا يدري ماذا يعمل؟ ولا يدري ماذا حل بها؟ هل يُلقي باللوم عليه كما تفعل هي الآن، التي أسرفت في رصيد لومه؟ وكيف

سيُسافر عنها دون رفقتها وألم الفراق وعذابه سيمخران معه في هذا الدرب؟ فيقف أمامها وقفته الأخيرة لوداعها والصمتُ يترنح عذابًا بين عيونهما كرفيق ثقيلٍ يرفض الرحيل عنهما، ولكن في كل الأحوال عليه الالتحاق بعمله؛ ففترة الإجازة الاستثنائية التي طلبها من أجل البقاء بالقرب منها انقضت، وعليه العودة.

يغيب عنها وعن أهله فترة شهور الحمل المتبقية؛ لأنه شعر بجفاء وصدٍّ منها، فكان الهجر والابتعاد هما الحل المؤقت لهما، وسوف تعود له زوجته الحبيبة كما كانت بعد الولادة - كما قالت له والدته - يعيش سعود هذه الفترة وحيدًا بعد طلاق عزوبيته .. يهرب من شقته كثيرًا؛ خوفًا من سماع صوتها يرن بصداه بين الجدران .. يهجر دولاب الملابس؛ تجنبًا لرؤية بقايا ثيابها وشم رائحة عطورها .. يفتقد لمساتها السحرية في كيان حياته كلها، يتعمد إهمال نفسه وصحته .. يُفكر بالذهاب للزبير في نهاية كل أسبوع لرؤيتها، لكنه يتردد؛ خوفًا من صدها وجفائها وهجرها له، وقد نال من جرعات الصد والجفاء ما يكفيه لأعوام قادمة، فكانت فترة حملها أطول فترة مرت في حياته، وتأتيه البُشرى في العودة إليها بعد أن تلقى اتصالًا هاتفيًّا في مكتبه من أهله وأهلها في آن واحد يُبشرونه بالمولود ..

تدخل عليه والدته سارة في دار الضيوف في بيت أهل زوجته سباچة .. كان جالسًا ينتظر رؤيتها بشوق بعد الولادة ورؤية ابنهما .. تحمل معها له صغيرين جميلين، وتسأله:

- تعرف ولدك من ولد بنت خالتك خديجة؟

سعود يحتضن الاثنين معًا، ويضمهما إلى صدره بحنان، وقلبه محتارٌ بينهما، لا يعرف من يكون ابنه .. لم يتمكن سعود من تحديد نوع الدموع التي انهمرت من عينيه، هل هي دموع فرحة وسعادة بولادة زوجته سباچة وعودتها إلى حياته من جديد؟ أم هي دموع ذكريات حزن على ألم تلك الأيام الماضية؟ فدموعه الغزيرة حولت عينيه إلى نبعين لا يكفان عن تدفق مائهما ..

قالت أمه:

- إيه، اللي حطيته على جهة گلبك عبد العزيز، والاثنين معًا ولدّتهم زينب جزاها الله خيرًا بنفس اليوم، ولدك جاء بالنهار وولد خديجة جاء بالليل، ولد بنت خالتك سماه أبوه عبد الحميد، وولدك مثل ما وصيتنا سميناه عبد العزيز على اسم أبوك، الله يحفظه ..

فجأة تدخل عليهما سباچة بـ (دراعتها) المطرزة بالزري، ذات اللون الأبيض، التي اشترتها من محل في مجمع الأوقاف بالكويت؛ لتلبسها في أيام نفاسها الأولى، دخلت معصوبة الرأس بقطعة قماش بيضاء، وبوجه أصفر كلون الكركم .. لقد امتصت ساعات الولادة معظم الدم المكتنز في وجهها .. دخلت بجسم متعب ذابل من أثر جهد الولادة، تجر خُطاها بتثاقل .. لمح سعود في أرض سواد عينيها عتب وتعب، احتار في تفسيرهما؛

فالبؤبؤان كأنهما قاربان تتقاذفهما أمواج النجاة بين ساحل الفرحة والسعادة وبين شاطئ الحزن والكآبة .. يُصارعان بعنف ضياع قادم بين تيارات الحياة الجارفة، فوقف سعود ليحتضن زوجته بين يديه الممتدة لها .. لم تتردد في قذف نفسها في حضنه باكيةً وشاكيةً شدة غدر تلك الأيام التي انقضت على خير، فقبل رأسها ويديها، وشكرها على المولود الجميل، وقال لها:

- من اليوم ورايح لا تناديني إلا (أبو عبد العزيز) ..

- أبشر أبا عبد العزيز ..

فضحكا والتفتا في اللحظة نفسها إلى والدته سارة، التي كانت منشغلة بسعادةٍ في تغْيير ملابس حفيدها عبد العزيز، فرفعت رأسها لهما، وقالت:

- الحين يا سعود شلون أنادي على ولدك بعزِّيز لمن أحمق عليه، وأبونا عبد العزيز؟

- يمه .. عبد العزيز لم يُخلق ليُصغَّر!!

بعد انقضاء فترة النفاس التي امتدت لشهرين كاملين في الزبير، تعود سباچة لشقتها في منطقة الروضة بالكويت برفقة ابنها عبد العزيز، لتبدأ حياتها الجديدة؛ حياة الأمومة بعد ذلك الهجر الكريهة سيرته، وتلك القطيعة القاتلة في أيام (النساة)، وتَركُنُ بكل ثقة بالله عز وجل عربة ذلك الماضي المؤلم التعيس في صندوق الذكريات، الذي تُعشش فيه جرثومة آفة

النسيان؛ لتعيش مع زوجها قصة الحاضر مع ابنهما عبد العزيز، بعد أن امتصت السعادة الغامرة جحافل تلك الأيام السيئة الذكر ..

تتناوب عليهما رسائل الشوق والوله الخطية لعبد العزيز من الجدات، بعد غياب طالت فترته وتجاوزت الستة شهور؛ مما جعلهما يرضخان ويستسلمان لمشاعر هذا المد البريدي العاطفي الجارف الذي لا ينقطع؛ لشوقهما لحفيدهما الأول عبد العزيز .. الجدتان لا تُريدان مزيدًا من الصور الفوتغرافية، فيقرر كل من عبد العزيز وسباچة زيارتهما بعد أن بدأ عبد العزيز مرحلة عبث (الحبو)، وتصيد ما في طريقه من أشياء متروكة فوق الأرض، ووضعها في فمه ليتذوقها، بعدما شقت أسنانه اللبنية التحتية طريقها في فمه؛ مما زاد ضحكته وسامةً بهذين السنيِّن الصغيرين، وأصبح واجبًا على الجدتين إقامة حفلة (النون) لهذا الحفيد، فاجتهدت كل منهما تستعد بطريقتها الخاصة بمفاجأة للحفيد بمثل هذه المناسبة السعيدة، واشترط سعود على سباچة أن يكون سفرهم للزبير بعد أداء العمرة التي وعدها بها كهدية (طلعة) نفاسها، وشكرًا لله على أن أسبغ عليهما نعمة هذا الابن المزيون ..

***

الخطوط الجوية الكويتية

يحجز ثلاث تذاكر سفر مرجَّع على الخطوط الجوية الكويتية المتوجهة لمدينة جدة، وهذه المرة الأولى التي تُسافر فيها سباچة بالطائرة .. لم يسبق لها أن سافرت، حاولت كثيرًا أن تثنيه عن السفر بالطائرة والذهاب بالسيارة، ولكنه رفض؛ مبررًا لها بأنها مسافة بعيدة لمكة المكرمة ومتعبة عليهم، ولا يستدعي خوفها من الطائرة أن نذهب بالسيارة، فالمكتوب لهم سيحدث سواءً في الطائرة أو في السيارة، أما سعود فقد سبق له أن سافر عليها، في أول إجازة سنوية له .. كان عاشقًا لبريطانيا العظمى ومحبًّا لها منذ أيام حماس شبابه .. كان مُعجبًا بهذه الإمبراطورية العظيمة التي لم تغب عنها الشَّمس، ومتأثرًا بفكر عقلية إدارة مستعمراتها الكثيرة المتنوعة الأعراق والديانات، شاهد بقايا من آثار حضارتهم في العراق، عندما كانت مستعمرة تحت الانتداب البريطاني، وله مواقف كثيرة ضد أبناء الجمهوريات والأحزاب المناهضين لوجودهم العسكري والسياسي، وقرأ كثيرًا عن ما فعله أبناء الثورات بالأبرياء، وتلك التصفيات الحافلة بسجلاتها الدموية، وكان ناقدًا لهم، ناقمًا على تصرفاتهم الرعناء غير

المسؤولة، ويرى أن أبناء هذه الجمهوريات لم يأتِ منهم خير أبدًا على مدى حكمهم، بل كان حكمهم لعنة على الشعب العراقي الذي دفع ضريبة سقوط الملكية، وتصفية العائلة المالكة في مجزرة دموية بقصر الرحاب ببغداد، ألم يكن بالمستطاع تجنب قتلهم بهذه الطريقة المأسوية البشعة؟، أما كان يمكن تسفيرهم إلى الخارج كما فعل أبناء فكرهم المصريين مع ملكهم؟، وخصوصًا ذلك الملك الشاب الصغير الذي لم يُمارس الحكم كواقع؟ ولو فرضنا أن قتل الرجال كان ضرورة أملتها عليهم الظروف؛ كي لا تنبت شجرتهم من جديد في المستقبل، فما ذنب النساء اللواتي لم يكن لهن علاقة بالسياسة والحكم؟ ويا ليتهم اكتفوا بالقتل، بل زادوه بسحب الجُثث في الشوارع وتدنيسها وحرقها بأبشع صور القسوة والوحشية التي يخجل التاريخ من سردها وتدوينها، وتغيير الأنظمة عن طريق العنف الثوري غالبًا ما يقود إلى دكتاتوريات سيئة؛ لأنها تأتي بشباب مغامرين تنقصهم الخبرة والتجربة، همهم الوحيد السيطرة على مقاليد الحكم، ثمَّ بعدها يسعى كل منهم إلى إقصاء الآخرين، والتخلص من منافسيه بالعنف ذاته دون رحمة ..

كان جزءًا كبيرًا من حلمه في الحياة زيارة بريطانيا، ومشاهدة معالمها التاريخية والسياسية والسياحية، ولا يزال يذكر تلك السفرة التي نعتها بالرحلة (الجينية)، يذكرها بكل تفاصيلها الدقيقة، عندما جلس في مقعده المخصص له في طائرة الخطوط الجوية الكويتية الرابضة فوق أرض مطار

الكويت الدولي، والمتجهة لمطار هيثرو في مدينة لندن .. لقد سمع من بعض المسافرين للخارج قصصًا كثيرة عن رحلاتهم الجوية، وعن من يجلس بجوارهم في رحلة طويلة بين هاتين المدينتين، ربما جلس بجواره رجل مسنٌ سيُزعجه صوت شخيره طوال ساعات الرحلة، أو شابٌّ متعب كثير الحركة والتنقل، لا يهدأ أبدًا في مقعده الخاص، أو مريضٌ يترنح في ألمه وسعاله وشكواه من مرضه، وسمع عن قصص من يجلس بجوارهم طالبات جامعيّات مُبتعثات للدراسة الخارجية، راجعات لجامعاتهن بعد قضاء فترة العُطلة والإجازة الطلابية عند أهاليهن ..

كانت سفرته بعد نهاية عطلة أعياد الميلاد ونهاية السنة الميلادية، فأسعار التذاكر عادة تكون مخفضة في فصل الشتاء، تقدمتْ نحوه فتاة خمرية اللون؛ لتستأذن منه المرور لمقعدها المجاور للشباك، فوقف ليترك لها مساحة لمرورها بينه وبين ظهر المقعد الذي أمامه، فشم في صوت حنجرتها رائحة (الشبزي)، ثم جلس في مقعده والتفت إليها مبتسمًا قائلًا بصوتٍ متأنقٍ:

- حياچ الله ..

تُهملُ جرأته بقسوةٍ وتكتفي بقولها:

- مشكور أخوي ..

يلتفت إليها مرة أخرى بعد أن استقرت في جلوسها الأنثوي، ويقول:

– أتمنى من الله يوقف نزول الثلج بلندن، سمعت بنشرة الأخبار، من البارحة والثلج ينزل عليهم ..

فلا تزيد عن قولها:

– إن شاء الله ..

– يلتفت إليها مرة ثالثة، ويسألها بجرأة ووقاحة، وكأنه في محضر تحقيق شرطة بالمخفر:

– الأخت كويتية؟

فتُجيبه بصراحةٍ – كعادة أغلب الكويتيين صريحين في حياتهم مع من يلتقون بهم إلى أبعد الحدود:

– نص نص ..

فيضحك ملء شدقيه لإظهار خفة دمه على قلبها ..

– ممكن أتعرف على النصين؟

– أبوي كويتي الجنسية وهذا نصي الأول، أصرت يدتي العُودة الله يرحمها تزويجه بزبيرية، وهذا (نصي الثاني) .. قالت يدتي العُودة عنها: الزبيرية متعلمة ومثقفة وطباخة وربة بيت، وسنع ومنع من يومنها زغيره، وما تعرف الدلع والربادة، زوجة صالحة له، مسمية مصلية، ما تركض ورا الموضات والأسواق، ففرحت أمي بذاك الوگت حيل بمثل هذا الزواج،

كانت تنتظر مثل هذا الزوج بشوگ .. وتگول الوالدة الله يحفظها: بمرة من المرات فكت لها الفال الطشَّاشة من غير علم يدي العود الله يرحمه، ولو درى عنها چان گتلها ويا أمها، دخّلوا الطشَّاشة بالدهريِّز، وگالت لها: راح يجيِّچ رجال كويتي، فجينا أنا مع أخواني الأربعة من تركيبة هذا المصنع ..

- وأنا أسأل نفسي عن خفة الدم هاذي منين؟

- أعتبر هذا الحچي دفعة على حساب المعاكس والمغازل؟

فضحك وقال:

- خليني أعلمچ تركيبتي الجينية .. الغريبة بالأمر فيني من (نصچ) الثاني، فأنا زبيري بالميلاد والمنشأ، أبوي هاجر من نجد من مدينة حريمله، ويمكنچ أول مرة تسمعين فيها، فأهلي من نجد ولكني مولود بزبير، فمجتمعنا السعودي يراني زبيري، والمجتمع العراقي مصر على أني نجدي، وأهل الكويت يروني عراگي، وأنا بين هاذي التصنيفات محتار رغم أني سعودي الجنسية، وأشتغل بالكويت بالداخلية، كاتب تحقيق في مخفر العديلية ..

فضحكتْ على هذه المراهقة السكانية بين أصول الناس ومواطنهم، ثم قالت بلهجة الحسرة وألم الواقع المرير:

– المشكلة هذيله النصين بحالة صراع دون انتصار لأي طرف منهما، وأتمنى ينتصر أحدهما على الآخر بيوم من الأيام، لأعيش حياة وحدة .. حاولت أمحي الجينات الزبيرية وأعيش بجينات كويتية بس، ولكني ما قدرت، فالنَّاس من ييران وأهل يسوون دوريات تفتيِّشيه لنبش عظام هذا الرفاة المطموم من سنين ..

فيصيبه نوبة من الضحك على هذه الدوريات التفتيشية المفاجئة؛ لأنه دائمًا ما يتعرض لها في العراق وفي السعودية وفي الكويت، عمليات نبش القبور في حياته لم تقف رغم ثقافة الأجيال المعاصرة، وعمليات إخراج قراطيس صكوك التثمين من لحدها لم تهدأ وتكبح جماحها بين النفوس ..

يقطع حديثهما صوت مضيف الخطوط الجوية الكويتية؛ للإعلان عن قرب وصولهم لمطار هيثرو، وعليهم ربط الأحزمة، وإعادة طاولات الأكل لمكانها الطبيعي؛ استعدادًا للهبوط في المطار، فيضع يده في يدها الدافئة، ويقول لها:

– جيناتي الزبيرية ذكورية؛ فمصدرها أبوي، وجيناتك الزبيرية أنثوية؛ فمصدرها أمك، وهذا رقم هاتفي في المخفر وعنواني الخاص، على أمل أن تتواصل هذه الجينات فيما بينها في رحم الحياة.

***

المطلاع

يقضيان ثلاثة أيام في مكة المكرمة مع ابنهما عبد العزيز، الذي تناوبا على حمله في أشواط الطواف والسعي، وعند مرورهم بالقرب من شباك مقام إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تعلق عبد العزيز بقضبان الشباك، محاولًا أن يطل على ما في داخله، محاكيًا ما يفعله بعض المعتمرين بجهل؛ من تقبيل له وتمسح فيه .. تمسك عبد العزيز بقضبان شباك المقام بقوة، وكأنه يقول لهما لا نُريد أن نُفارق هذا المكان، نُريد السكن هنا في مكة، ثم شربوا من ماء زمزم، وغسلتْ وجه ابنها منه كعادة بعض الأمهات مع أطفالهن، وتذكرا دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم]، ثم تسوقت سباچة (صوغتها) من سوق الليّل، لأهلها ولأهل زوجها .. لم تنسَ صغيرًا ولا كبيرًا، ولا قريبًا ولا بعيدًا إلا وخصته بشيء من (الصوغة)، رجعوا قافلين للكويت من مكة، مهللين ومكبرين، وشاكرين الله على هذه النعمة، وفور وصولهم للكويت، طلبت سباچة من سعود أن يأخذها لسوق المباركية؛ لشراء ما تحتاجه من

أسواق سراديبها المنتشرة فيها، وسوق المباركية يعني لأهل الزبير الشيء الكثير، بينهم وبينه علاقة عهد عليهم الوفاء بها في كل زيارة للكويت، فبضاعته مناسبة لكل الأذواق، أما أسعار بضائعه فمعقولة جدًّا ..

بدأ سعود رحلته للزبير بعد صلاة العصر مباشرة بسيارته الخاصة، (المازدا) ذات اللون العنابي، التي قام بشرائها قبل سنتين من الوكالة مباشرة بأقساط شهرية مريحة، بكفالة أحد معارفه الكويتيين .. فضل سعود أن يسافر عصرًا وهو الوقت المفضل لكثير من المسافرين للزبير، ركب السيارة بعد أن تأكد من قفل باب شقته جيدًا، وتأكد من إغلاق أسطوانة الغاز التي كثيرًا ما ينساها مفتوحة في سفره .. التفت إلى زوجته سباچة؛ ليسألها إن كانت نسيت شيئًا من حاجياتها قبل أن يتحرك من موقفه، فأجابته بهزة رأسها نفيًا، وذكَّرته بعدم نسيان دُعاء السفر .. استغرب كثيرًا من حرصها على هذا الدُّعاء، ولأول مرة منذ أن عرفها تطلبه منه، وسريعًا ما ربط هذا الطلب بعودتها القريبة من العمرة، وظنها روحانيات إيمانية، وبدأت الرحلة بصمتٍ مخيفٍ بينهما، كأن كلًّا منهما له حكاية خاصة، يتحدث فيها مع نفسه ولا يُريد أن يبوح بها للآخر، وكأنهما لا يعرفان بعضًا جيدًا، ولأول مرة يجلسان قُرب بعضٍ في سيارة .. نظر سعود لزوجته سباچة، وكان ابنه عبد العزيز نائمًا في حضنها، بعد أن أكمل وجبة رضاعته، متوسدًا يدها اليمنى .. رآها ساهمةً تُحدق في الأفق بعينيها العسليتين الجميلتين دون أن تحرك نظرها أو ترمش على الأقل، مبالغة في صمتها

المطبق، وكأنها نذرت أن تصوم عن الكلام .. تُحاول النظر لبعيد؛ لاصطياد أبعد نقطة في الطريق؛ لتكتشف ما فيها من مفاجآت قادمة، رغم أنَّ هدوء حركة الطريق أغواها أن تستسلم لفوضى الذكريات التي لا ترغب في استدعائها الآن، إلَّا أنها بدأت تبحث عبثًا عن مرفأ آمن لا تجده، فحار سعود فيما ينبغي أن يفعل حينها، وفي النهاية وضع يده اليمنى فوق يدها اليسرى التي كانت مستقرة فوق أرجل عبد العزيز، وضغط عليها بحبٍّ؛ ليكسر حاجز هذا الصمت الرهيب الذي تفتقت أحشاؤه في هذه السفرة، ونظر إلى عينيها نظرة بعيدة، وكأنه يُحاول اختراق ستار الغيب؛ ليرى ماذا يُخبئ لهما، فتشيح ببصرها بعيدًا عنه، وكأنها تخشى ارتطام عينيها بعينيه، ويكتشف خوفها من هذه الرحلة، وظل صدرها يصعد وينزل بسرعة، ثم قال لها بصوتٍ هادئٍ، يغشاه الحنان، وهو يسمع صوت صفير شهيقها وزفيرها:

– سباچة، اشتقت كثيرًا للوالد والوالدة.

– وأنا أيضًا اشتقت لهما كثيرًا .. قالت وهي تشيح ببصرها بعيدًا عنه؛ كي لا يرى ملامح تأثرها ..

اقترب سعود من هضبة (المطلاع)، الذي هو عبارة عن سلسلة من المرتفعات ذات الأرض الصخرية الصماء، التي لا ينبت فيها عشب، ولا يعيش فيها كلأ، الذي يُعتبر مدخلًا لمنطقة (الجهراء) المشهورة في بداوتها

العريقة، والمُطلاع جزء من محافظتها في شمال غرب الكويت، يبعد (المطلاع) عن العاصمة 40 كم، واشتهرت بين أهل الزبير قصة غريبة اسمها (ذيب المطلاع) .. تناقلها أهل الزبير فيما بينهم، وترددت بين صحة الحدث من جهة نقل الرواية وبين تلفيق الخبر من حيث البطولة غير الطبيعية لقاتل ذلك الذئب الشرس، ولا تُوجد رواية ثابتة صحيحة عنها في كتب التُراث، بل كل عائلة تنسب بطولة قتل الذئب لنفسها. بعد تجاوز سعود نقطة تفتيش (المطلاع) بعشرة كيلو مترات وجد صعوبة في السيطرة على مقود سيارته؛ نتيجة انفجار عجلة سيارته اليمنى؛ مما أدى إلى انحرافها لجهة الكتف الأيمن للطريق بسرعة، ثم هبوطها في الأرض المنخفضة، فانقلبت بهم عدة انقلابات، فرمتهما بسرعتها لخارجها، ويروي الحادث شاهد عيان لرجال شرطة النجدة وعلامات المفاجئة ظاهرة على وجه، لكنه عاقدُ العزم على وصف ما حدث أمام عينيه بدقةٍ، مثل شخص يصف فيلمًا سينمائيًّا لصديق لم يشاهده من قبل .. أغمض عينيه لحظات، ليَصف ذلك الحادث المأساوي الذي أثر فيه ولا يستطيع طرده عن ذاكرته:

– كان صاحبها يقود سيارته أمامي بمثل سرعتي 120 كم بالساعة، وكان بيني وبينه مسافة لا تتجاوز 300 م من دوار العظام .. بعد تجاوزه هضبة (المطلاع) شاهدتُ انحراف سيارته لجهة اليمين ثم انقلابها على جهة كتف الطريق .. في الانقلابة الأولى رمته في الهواء، وفي الانقلابة الثانية رمت زوجته خارجها، ثم انقلبت انقلابة ثالثة ورابعة، فوقفتُ ووقف معي

كثير من المسافرين؛ من أجل مساعدتهم في مثل هذه الظروف، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصابين في الحادث، فسمعنا بكاء طفل صغير داخل السيارة، وكان محركها لا يزال يعمل .. لم نتمكن من قلب السيارة في صورتها الصحيحة؛ خوفًا على الطفل، واحترنا، ماذا نعمل؟ فتبرع أحد الواقفين وأحضر من سيارته (بطانية)؛ لتغطية المرأة، وذهب متبرع آخر لمركز (المطلاع) من أجل الاتصال بالشرطة والإسعاف، ولم يتوقف الطفل عن البكاء خلال هذه الفترة، أما الرجل والمرأة فممددان على جانب الطريق لا حراك فيهما غير دبيب النفس البطيء المتقطع، والناس تلتف حولهما، هذا يصيح: مات، وآخر يجس نبض الرجل ويصيح: لا، مازال حيًّا، وذاك يصرخ: انقلوهما للمستشفى، في حين هتف أحد الواقفين: اتصلوا بالشرطة ..

***

مستشفى الصباح

وصلت سيارات النجدة والإسعاف في آن واحد بعد عشر دقائق من الاتصال بهم من مركز (المطلاع)، ثم توالت السيَّارات الأخرى من مستشفى الصباح، وباشروا في الإسعافات الأولية السريعة في مثل هذه الحالات، فعالجوا الطفل .. بداية أخرجوه بعناية فائقة من داخل السيارة، وانطلقت به سيارة الإسعاف الأولى لطوارئ مستشفى الصباح، ثم رفعوا بالنقالات كلًّا من سعود وسباچة لسيارة الإسعاف الثانية، وهما في حالة غيبوبة تامة، وانطلقوا بهما للمستشفى، وبقي رجال الشرطة يُعالجون وضع السيارة ونقلها، وجمع ممتلكاتهما المتناثرة في مكان الحادث حول السيَّارة، وما في داخلها ..

كان من ضمن المسافرين المتجمهرين حول مكان الحادث بعض من أهل الزبير .. بعضٌ منهم يعمل في تجارة هذا (الخط)، سواءً من ناقلي (العِبْرِيَّة)، أو ممن يُتاجر ببضائع البلدين المتجاورين، فكان هذا الخط من مصادر الرزق لكثير من الأسر في الزبير، فتعرفوا على سعود وسيارته،

وانطلقوا للزبير ليرووا هذا الحادث الأليم لمن قابلهم من معارفهم، فاحتار الجميع كيف يتم إخبار والده ذي الشلل النصفي بمثل هذا الخبر المؤلم؟، ومثل هذا الخبر سيكون مفاجأة من العيار الثقيل، ومن الضروري عليه السفر للكويت، ومتابعة ما حدث لهم، فاهتدوا أخيرًا لإخبار شقيق سباچة (حمد) بهذا الحادث، واحتار هو الآخر بعد أن علم بتفاصيل الحادث، كيف يتم إخبار والد سعود بهذا الأمر؟ ماذا عساه أن يفعل؟ هل يُخبره أم يذهب لوحده للكويت؟ وتردد وخشي من عاقبة المسؤولية أن تقع عليه لاحقًا بعدم إخباره، وفي ثاني يوم من الحادث قرر إخباره بصورة موجزة، بأن ابنه مريض ويرقد في المستشفى، ومن الضروري زيارته؛ للاطمئنان عليه وعلى أخته، فانطلقا بسيارة أجرة خاصة وحدهما للكويت، في طريق أكل كثيرًا من ساعات عمرهما، فوصلا لمستشفى الصباح، وفي قسم الطوارئ سألا عنهم فلم يعثرا على أسمائهم في سجلاتهم الرسمية، واحتار حمد في كيفية سؤالهم عن الحادث ومعه والده، فأقنعه أن يجلس في صالة الانتظار؛ ليبحث عنهم بنفسه ويأتي ليأخذه فيما بعد، فرجع مرة أخرى لقسم الطوارئ ليسأل عن حادث انقلاب السيارة قبل يومين في (المطلاع)، فسألوه من أنت؟ فأخبرهم بأنه شقيق سباچة، فأخذوه لمدير قسم الطوارئ، ومن هناك وبعد مقدمة طويلة في مسألة القضاء والقدر والآجال المكتوبة، والإنسان في هذه الحياة مبتلى وعليه الصبر، أخبره مدير القسم بأنَّ سعود وزوجته تُوفيا ليلة البارحة، وابنهما - بفضل الله - على قيد الحياة،

تعرض لكسور في بعض عظامه، وبعض الجروح في رأسه، والآن يرقد في قسم العناية الفائقة، وباستطاعتها رؤيته، وعليها سرعة استكمال شهادة الوفاة، واستلام الجثتين من الثلاجة، والسعي في دفنهما، كما عليها ضرورة استلام الممتلكات الخاصة بهم من قسم الحوادث في إدارة المرور حسب النظام ..

وضع حمد يده على الجدار للحظات؛ كي يستعيد توازنه فيما سمع من أخبار مُزعجة، واحتار في كيفية إبلاغ والد سعود بخبر وفاتهما، وكان هذا عليه أشق من سماع خبر الوفاة، وندم على إحضاره معه للكويت .. لم يكن يتوقع بأنَّ حالتهما كانت سيئة وخطيرة لهذه الدرجة .. اهتزت أركانه، وعجزت قدماه عن مقاومة حمل جسمه، وكأن الزمن تعطل، وظلَّ واقفًا عند تلك اللحظة، فطلب من مدير الطوارئ أن يجلس في مكتبه؛ ليستوعب هذه الصدمة التي لم يكن يتوقع حسابها، فجلس فاغرًا فاه دون أن يتفوه بكلمة، محاولًا أن يستعيد أنفاسه اللاهثة .. لم يتأثر بموتهما بقدر ما شغله وأوجع قلبه كيفية نقل مثل هذا الخبر المؤلم لرجل طاعن في العمر، نصفه الأيمن مشلول .. لقد تقاعست جرأته عن القيام بواجبها، فغابت عن الحضور دون اعتذار، فاتهمها بالجُبن والتخاذل عند الحاجة، وخاب ظنه في رجولته التي كان يُفاخر بها بين أصحابه، فغطى وجهه بيديه، وقال:

– إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

كيف يخبر والد سعود؟ هل يخبره بالأسلوب الشرقي؟ أم الغربي؟ في الغرب عندما يمرض إنسان ويذهب لطبيبه ويفحصه يقول له في وجهه مباشرة: أنت يا عزيزي مريض بالسرطان، وأمامك ما بين ستة أشهر إلى سنة في الحياة، وبعدها ستموت، عندها يطلب المريض من طبيبه الخاص بأن لا يُخبر زوجته، وليس هنالك داعٍ لإزعاجها لمدة عام قبل أن تقع كارثة موته، أما في بلاد الشرق فإن أهل المريض يذهبون بمريضهم إلى الطبيب، ويقول له الطبيب: لا شيء فيك، وإنك كالحصان، وإن صحتك سليمة، ثم ينفرد بأهله في غرفة خاصة، ويقول لهم إنه مصاب بالسرطان، ويرجوهم عدم إخباره، رغم أنهم أهل عقيدة وتوحيد، وتوكل على الله في كل صغيرة وكبيرة، أما أهل الغرب فهم على باطل وانحراف والعياذ بالله ..

فلم يجد حمد أمامه غير طلب مساعدة مدير الطوارئ، الرجل السمين ذي البطن المنتفخة في كل الاتجاهات، وكأنها (بقشة) ثياب عجوز، خبأتها في دولابها وقفلته؛ خوفًا عليها من عبث أحفادها، فمن المؤكد أنه قادر على نقل خبر وفاتهما لوالد سعود المتعب صحيًّا؛ فأمثاله لديهم الخبرة والدراية في التصرف بمثل هذه المواقف المفجعة، فتكلم مدير الطوارئ بمشاعر إنسانية راقية، أجاد فيها التعبير والاستشهاد بما قال الله تعالى وقال رسوله

ﷺ في مثل هذه المواقف العصيبة .. كان يتكلم وينظر لوالده، الذي ظل واجمًا في نظره المسلط على مساحة ما تحت قدميه بلا حراك .. ينظر بإمعان وتركيز، كأنه يحاول جاهدًا حل لغز سمعه توًّا، منتظرًا بداية ما سيقوله من أمرٍ مفزع مؤلمٍ متوقع من هذه المقدمة الطويلة، فقد وصلت رسالته الحزينة قبل فتح ظرفها وقراءة محتواها، فالبعرة تدل على البعير، وأخيرًا سمعه يقول:

– هذا قدر الله يا عم بوسعود، إنا لله وإنا إليه راجعون، وعظم الله أجركم فيهما، وحفظكم الله ذخرًا للحفيد ..

استغرب حمد من والد سعود، الذي لم تهتز مشاعره الداخلية كما يحدث في الغالب عند كثير من البشر .. لقد حافظ على إخفائها بشدة وصرامة، وحرص على عدم ظهور بثورها أمامهم .. كان مقتنعًا أنَّه من النَّاس الممنوع عليهم الانهيار أمام الآخرين؛ لأن المسؤولية تخصه وحده، وتقع على عاتقه وحده، وليته بكى وليته تكلم، وليته عصر ما في وعاء قلبه من ألم، وليته عبر عن مشاعره في وقتها ولم يكنزها ويستثمرها طغيان مرضه المتمكن منه، ولكن قلبه التهم هذه المصيبة العظيمة بصمت مخيف لدقائق قليلة، وكأنه غير متأكد بأن حمدًا قد أنهى كلامه، ومعلوم أن المصيبة وحدها من تشذِّب أحاسيسنا الثائرة، وتُحرض إنسانيتنا لترق وتشف وتتبلور، فإنسانيتنا تظل بحالة خام وبدائية قبل المصائب ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن

يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ [العنكبوت:2] .. اتخذ والده من هذا الصمت محرابًا له، ومن السكوت آية يتعبد فيها ربه سبحانه وتعالى .. لم ينطق بغير كلمات قليلة، تلكأ فيها لسانه كثيرًا، بعد أن شعر بتيبس شفتيه، وبجفاف فمه .. حاول بلع ريقه عدة مرات، خرجت من فمه بمشقة، كمن انتُشل من بئر عميقٍ، غاص فيه حتى العمق ..، خرج من عمق صمته ليقول:

– حسبنا الله ونعم الوكيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ثم التفت لحمد وقال له:

– نروح نشوف الأحياء قبل الأموات.

ذهب أبو سعود بعزيمة محارب يئس من النصر لقوة عدوه، فآثر الانسحاب من ساحة المعركة بهدوء لجناح العناية الفائقة .. كان يمشي ولا يرى طريقه، وكأن غشاوة قاتمة قد أغلقت عينيه، فلم ينتبه للممرضة التي قادتهما لسرير عبد العزيز، الذي لم يتعرَّفا عليه في بداية الأمر؛ لعهدهما به صغيرًا، عندما كان عمره شهرين، فشاهدا كثرة الأسلاك المحيطة به من كل جانب، وكمام البلاستيك الشفاف الذي غطى وجهه الصغير بالكامل، موصولًا بأسطوانة أوكسجين، وشاشات كثيرة نُصبت حوله، فيها أرقام ملونة تنبض بسرعة مخيفة .. وقف جده عند رأسه ينظر إليه ولا يعلم ماذا

يفعل أو يقول، ثم انحنى عليه ليقبل رأسه المجروح، ويقول بكلمات ثقيلة في مخارج حروفها:

– سبحانه من يُحيي العظام وهي رميم، وهو على كل شيء قدير ..

ناداه بهمس:

– عبد .. العزيز .. يا روح الجد وابنه ..

ابتعد عنهما حمد في موقف لا يُحسد عليه مطلقًا، هو يسمعه يُنادي طفلًا صغيرًا لا حول له ولا قوة، ولا يستطيع حتى أن يرد عليه أو ينظر له، فتنهد الجد تنهيدة ألم، متأثرًا بمنظر حفيده الرضيع، ثم طلب من حمد الذهاب لثلاجة الموتى في المستشفى؛ لرؤية ابنه سعود وزوجته، فاعتذر منه حمد عن الذهاب، مبررًا له رؤيتهما في مغسلة المقبرة، ولكن أبا سعود أصر على رؤيتهما قبل الغسل والدفن ..

وبين أدراج ثلاجة الموتى الضخمة، المتشابهة في التصميم والحجم في الدور الأرضي للمستشفى، حيث لا تسمع غير الصمت المُوحش فيها .. مَشَيا بتثاقل لدرجي سعود وزجته مع مُشرف الثلاجة، وشَاهدَ أبو سعود بداية درج ابنه ثمَّ درج زوجته، فوقف عندهما ورفع يديه بالدعاء لهما، وتحمل كثيرًا مشقة ألم هذه الرؤية، في الوقت الذي اعتذر فيه حمد عن رؤية أخته سباچة وزوجها سعود في هذا المشهد المُؤلم؛ فمشاعره ضعيفة، ولا تقوى على مثل هذه المواقف المحزنة ..

وفي اليوم التالي تم دفنهما في مقبرة (الصليبخات)، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:34] ، وجلسا ثلاثة أيام للعزاء في الكويت بمنزل ابن عمه في منطقة (كيفان)، وبعد مرور أسبوع، غادرا الكويت، متجهين للزبير، يحملان معهما الطفل الصغير عبد العزيز كوديعة يتيمة، بعد أن تماثل للشفاء التام، وبدأ يبحث بين وجوه الحاضرين عن صوت أبيه وعن وجه أمه، والكل يذكر له بأنهما في الزبير، وهو لا يعي مما يقولون شيئًا، لقد سافر الحفيد مع وجوه لم يألفها من ذي قبل، ولكن كانت الألعاب الإلكترونية الكثيرة بأصواتها المختلفة كفيلة بتسليته عن سؤاله المتكرر عليهم عن أمه وعن أبيه، وسوف تستقبل الطفل عبد العزيز مفاجأة جديدة في الزبير .. سيشاهد وجوهًا لم يرها، وسوف يسمع أصواتًا لم يسمعها من ذي قبل ..

***

عتيِّة

منزلان خيَّمَ عليهما الحزن والكآبة، اتشحت ساعات أيامهم بألوان العزلة والكآبة، فكلا الجدتين (سارة) و(گماشة) لم تنزعا عن رأسيهما غطاء الرأس الأسود، وصَبَغَ البياضُ بلونه البشع شعر رأسيهما، بعد أن هجرتا الحناء والأصباغ الشعبية التي يبيعها العطارون .. فترويض أسد في غابة أهون من ترويض الحزن في قلب إنسان .. كلا البيتين ذاق أهلهما طعم مرارة الألم، وتجرعوا من كأس الحزن، وتناقص في حياتهم منسوب الصبر على هذه الفاجعة المؤلمة التي ألمت بهم؛ ليصل لدرجاته المتدنية؛ المنزل الأول في منطقة (الحصي) أهل سعود، والمنزل الثاني في سكة (عتيِّة) أهل زوجته سباچة .. أغلقوا الأبواب عن المجتمع بعد أيام العزاء الثلاثة، وبقي اليتيم عبد العزيز كلاجئ مشرد، ليس له وطن يستقر فيه .. يعيش في حالة تَنقُّل يومي بين هذين البيتين .. في صباح كل يوم تأتي جدته لأمه (گماشة)؛ لتأخذه لبيتهم في (عتيِّة)؛ ليلعب مع الأطفال الكثيرين في بيت خواله، وفي مساء اليوم نفسه تأتيه جدته لأبيه (سارة)، تأخذه من بيت خواله لينام في غرفتها بمنطقة (الحصي)، وبين حُب هاتين الجدتين الحنونتين

عليه، عاش شطرًا من أيام طفولته، وتعرض لحسد وغيرة الكثير من أقرانه الأطفال؛ بسبب ما شاهدوا عليه من اهتمام ورعاية، لم ينالوا مثلها في حياتهم، وربما بعض من حوله بالغ بتطرف في أمنياته، فتمنى أن يكون يتيمًا، فاقد الأم والأب مثله، ولكنه قابل حسدهم بحسدٍ أكبر منه، وتمنى أن يكون مثلهم جميعًا، حولهم الآباء والأمهات ورعايتهم .. إنهم لم يعلموا بأنَّه لم يجد في حياته من البشر من يُناديه بأعلى صوته: (يمه) أو (يبه) .. وجاء الحزن إليه طارقًا عليه الباب من جديد، يوم وفاة جده لأبيه عبد العزيز، فتلتحق جدته سارة الحنونة والعطوفة عليه بأخيها في (الدمام)، تاركةً حفيدها عبد العزيز على مضض من الفراق وألمه، تركته مرغمةً كعهدة مستديمة عند جدته لأمه (گماشة)، التي انفردت بتربية ورعاية حفيدها بحرية تامة حتى وفاتها قبل دخوله للمدرسة الابتدائية، وجدته (گماشة) هي من أصرت على خاله حمد على دخول عبد العزيز الروضة مبكرًا، قبل سنه القانوني ..

(عتيِّة) جزء لا يتجزأ من محلة الزهيرية، تقف كحدود جغرافية لها في جهتها الغربية؛ لتفصلها عن السوق الرئيسي .. عتيِّة تقع مباشرة شرق سوق الخضرة (الجت)، وكأنها جزء من أرضه، وكأنها خنجر مطعون في خاصرة الزهيرية، وهي عبارة عن (سكة سد) طويلة وضيقة، البعضُ يعتقد بأنها منطقة كبيرة، وهذا مفهوم خاطئ، لا صحة له، ولا دليل عليه، وجاءت تسميتها نسبة إلى امرأة اسمها (عتيِّة)، يُقال إنها يهودية، وفي رواية

أخرى إنها نصرانية، كانت تعمل ممرضة أيام الإنكليز في قاعدة الشعبية بالزبير، وتسكن في هذه السكة القريبة من السوق .. كانت هذه المرأة كريمة وسخية في عطائها محبةً للأطفال، كانت كلما رجعت لبيتها وزعت (چاكليت) في طريقها على أطفال (السكة)، فلذا كان بعضهم ينتظرون عودتها بشوق ولهفة، وفي رواية أخرى تقول إنها سُميت بعتيِّة نسبة لامرأة كذلك، لكن كان اسمها (عتيقة)، ليس لها أطفال فهي عقيم، وتحب الأطفال، فكانت تُوزع عليهم الحلويات، ومع الأيام أصبح الاسم (عتيجة)، ثم حُوّل حرف الجيم إلى ياء، فأصبحت عتيِّة، بدلًا من عتيِجة، وهذه الرواية ضعيفة وغير متواترة، ومع الأيام اشتهرت هذه المرأة الكريمة (بالسكة)، واشتهرت (السكة) باسمها؛ لكرمها وسخائها، فصارت تُسمى (سكة عتيِّة)، ثم أصبحت عتيِّة بدون ذكر كلمة (سكة) ..

سكن فيها بعض العوائل الزبيرية النجدية، تُعد بأصابع اليد الواحدة؛ لأن مساحة (السكة) صغيرة، فلعائلة الضويحي المشهورة فيها عدة بيوت، ولعائلة الذيب بيت واحد، يقف بابهم كجندي مجهول في مدخل السكة لحراستها، في مواجهة سوق الخضر من جهة الشرق، وكأن جدار منزلهم الشمالي نقطة سيطرة لدخول منطقة (الزهيرية)، فكل من يُريد الدخول لمنطقة (الزهيرية) عليه المرور بمحاذاته، ثم بيت العلي، فجَاخُور للغنم، ثم (خَرابة) قيل عنها عدة روايات، أقربها صحة وقبولًا أنَّها بيت مهجور لعائلة الحسين، ثم منزل حمد الذي هو خال عبد العزيز، وخارج السكة

بيت مشهور بين سكان أهل (الزهيرية)، يُطلقون عليه (بيت الأنبياء)، فلديهم مجموعة من الأبناء بأسماء الأنبياء، إسماعيل، موسى، وعيسى، ثم جاءهم إبراهيم ابنًا لموسى ..

في هذه السكة قضى عزُّوز طفولته وشبابه ورجولته برعاية خاله حمد، الذي لم يبخل عليه عطفًا وحنانًا وتربيةً، وعامله مثل معاملته لابنه (بدر) الذي بمثل عمره ..

عندما بَلغَ كل من عبد العزيز وبدر الخامسة من عمرهما، قرر خاله حمد ختانهما، وكان يومًا عصيبًا عليهما في مأساته، تبعثر فيها حياؤهما على من حولهما من الأهل والأقارب والأصحاب .. صور جريمة ذلك اليوم البشعة استمرت تتقافز بحيوية لذاكرة عزُّوز كل حين .. استمرت لفترة طويلة من الزمن .. كانت أعظم صورة في ذاكرته عندما ضحك عليه المُخَتِن بخدعةٍ ماكرة يكررها دائمًا مع الأطفال، استدرجه فيها لمشاهدة سبابته المرفوعة للسقف وهو يقول له:

- شفْ عزُّوز الطير فوق نصيِّده

فرفع عزُّوز عينيه ببراءة الأطفال بحثًا عن مخبأ ذلك الطير الذي في السقف، فلم يره، ولكنه اكتشف متأخرًا بأن طيره هو المذبوح، فتخبط كدجاجة مذبوحة بين أيديهم الخشنة من شدة الألم .. كان الفخ الذي نصبوه لطيره مُحكمًا في التنفيذ، وسريعًا في اصطياده، سحب المُختِن مشرطه الحاد

بسرعة في موضع حياء عزُّوز، فاعتكف في البيت أسبوعًا كاملًا .. رفض الخروج بذلك الثوب الأبيض الشفاف، الذي يكشف عن ما خلفه من عورةٍ .. رفض الخروج للسكة كما فعل ابن خاله بدر، بدون ملابس داخلية، رافعًا (الململ) بيده نحو مقدمته؛ كي يتجنب ملامسة قماش الثوب لطيره المجروح رأسه ..

منذ اليوم الأول لانتقاله لبيت خاله، خصصوا له (چرباية) و(كنتورًا) صغيرًا خاصًّا بثيابه وحاجياته في غرفة جدته گماشة، فأضاء لها وحشة الوحدة في ليّلها الطويل، وتعلم منها صلاة الليّل ودعاء القنوت، واستمع منها أجمل القصص التراثية الخرافية، وحفظ عنها كثيرًا من القصص القرآنية، ومنها قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع كيد إخوته له، وكانت جدته تعتني بثيابه ونظافته ومأكله ومشربه وملبسه، وتحرص دائمًا أن يكون أنيقًا وسيمًا كما ينبغي، فشب بين أقرانه على ترف ودلال وخصوصية، ومثل هذه التصرفات غير الإرادية من الجدة أزعجت حفيدها الآخر بدر، وأشعلت نار غيرته دون شعورٍ منها، فكان يذهب لأمه طيبة شاكيًا من تصرفات جدته بمعاملتها الخاصة لعزُّوز.

***

روضة الأطفال

طلبت الجدة گماشة من ابنها حمد تسجيل حفيديها ابن أخته عزُّوز وابنه بدر في روضة الأطفال، كانت حريصة على تعليمه مبكرًا، منذ نعومة أظفاره، وكانت الروضة وقتها مقتصرة على أبناء الأغنياء والمثقفين، وعلى أبناء الذوات الذين أصابهم هوس التمدن والتحضر المبكر، فلم يكن تعليم هذا المستوى شائعًا ومنتشرًا .. لم يتردد ابنها في تلبية طلبها، كعادته يُنفذ لها كل رغباتها، فتم تسجيلهما في روضة الزبير المجاورة لمستوصف العقيل في شمال محلة الزهيرية، مقابل مدرسة طلحة الابتدائية من جهة الشرق، في منطقة العراص، فكانت الجدة گماشة مسؤولة عن توصيلهما في صباح كل يوم للروضة، وقبل أذان الظهر بنصف ساعة، عليها أن تذهب لأخذهما من الروضة بنفسها؛ خوفًا عليهما من (هوام السكيك) كما تزعم گماشة، ولكن عزُّوزا في ثالث يوم من بدء دراسته يفاجئهم جميعًا برفضه الذهاب للروضة، وعندما علم خاله بالأمر، سأله عن السبب، فأخبره بأن الذي يدرسهم (حرمة) وليس معلمًا، وأنَّ الذي يجلس معه في (الرحلة) بنت، ويجلس بجانب بدر ولد مثله، فلا يريد أن يستمر في مدرسة فيها أبلات

وبنات، فضحك من تصرفه كثيرًا، وفي اليوم التالي ذهب خاله لإدارة الروضة، وتمكن من حل جزء من مشكلته وانزعاجه .. غيَّروا له مكانه وأجلسوه بجانب ولد مثله، فلما أصبح شابًّا تذكر قصة تذمره وشكواه من تدريس الأبلة له، فقام بتدوين تلك الذكريات شعرًا بقصيدةٍ نعتها بـ (كلمات الأبلات)، ولكنه كتبها بفكر مختلفٍ جدًّا عما كان يفكر فيه عندما كان طفلًا صغيرًا بريئًا، قال فيها:

فيما مضى من زمانٍ

أخذتْ بيدي جدتي گماشهْ

ذهبتْ بيَ لأحد الروضاتِ

كنتُ صغيرًا .. لا أعي

لكني رفضتُ

أن أكونَ تلميذًا للمدرّساتِ

فأجلسوني في فصلٍ على غيرِ رِضًا

وحيدًا في آخرِ الطاولاتِ

حاولتُ أن أصادقَ من هم بجواري ..

حاولتُ مع جميع الأبلاتِ

الجميعُ رفض صحبتي

أعلنوا بإصرارٍ ..

عن رفضهم لتلك الصداقاتِ

في يومٍ من الأيامِ ..

ساقَ لي قدري إحدى الغيّماتِ

طرقتْ بابَ الفصلِ

تستأذنُ منا ..

طرقًا خفيفًا بأناملها ..

ليستْ كالطرَقاتِ

دخلتْ علينا بسلامٍ

بفرحةٍ .. بشوقٍ ..

وبطابورٍ من الابتساماتِ

نظرتُ لوجهِها ..

من بينِ الرؤوسِ

من بينِ الأجسادِ

من بينِ الممراتِ

تجولتْ في خُطاها القصيرةِ بيننا ..

في خفةٍ ..

في رشاقةٍ كالفراشاتِ

نظرتْ إلينا ..

بعينيها الجميلتين ..

فتقاسمتْ بيننا وبينها النظراتِ

نَظرتْ في كلِ منا

نَظرتْ في دفاترنا ..

وتداعبتْ بيننا العبراتُ

اقتربتْ من مقعدي

فتسربَ لقلبي من جسدها ..

عطرُ الكلماتِ

عرّفتنا بنفسها

اسمعوا صوتها:

أنا بنتُ البر والبحرِ ..

واسمي كلماتْ

تعرّفتْ علينا جميعًا

واحدًا تلو الآخر ..

ثم جاء دوري ..

فتعثرتْ في فمي الكلماتُ

قالتْ لي:

والابتسامةُ تُحيطُ ثغرها

من أنتْ؟

يا من تحتضنُ الثكناتِ؟

من أنتْ يا من تنظرُ إلي

بعينٍ صغيرةٍ ..

من خلفِ زجاجِ النظاراتِ؟

من أنتْ يا من تحملُ

بين ثنايا قلبكَ كُلَّ الصلواتِ؟

فرددتُ عليها بهدوءٍ

وقلبي يقفزُ طربًا لها ..

وعقلي يُغادرُ المعتقلاتِ

يكسرُ قيد عواطفي

ويُعلنُ جهادًا ..

لإزالة عصر الظُلُماتِ:

أنا طيرٌ مُهاجرٌ

عن عشهِ ..

عن أرضهِ ..

بحثًا عن واحاتِ

فضحكتْ على حياءٍ

ويُعجبني كُل ما فيها ..

وتُعجبني تلك الضحكاتِ

أهلها .. علموها بأنه

عيبٌ على البنتِ الضُحكِ

وحرامٌ عليها الابتساماتِ

ثم غادرتْ لمقدمةِ الفصلِ

كالشمعةِ المضيئةِ ..

تسكُبُ حولها الإضاءات

فأمسكتْ بقلمٍ

فشخبطتُ .. ثم مسحتُ

ثم نظرتْ إلي ترسمُ أجمل اللوحاتِ

أناملها خفيفةٌ

يدها صغيرةٌ ..

وكل ما فيها يتحركُ بسرعةٍ مخيفةٍ

تساقطَ بعضُ شعرها

على وجهها ..

فمسحتْ بأصابعها تلك الخُصلاتِ

فتحرك قلبي معهنْ ..

فهاجت مرةً أخرى ..

وعاودن السقطاتِ

بدأت تشرحُ لنا:

في درسها .. لا أذكرُ:

قراءةً .. أم رياضيات

وضعتُ يدي على خدي ..

فتسمرتْ عيناي في محاجرهما ..

وتسارعتْ في قلبي دقاتٌ

فظنتْ لكثافة نظراتي ..

فتشاغلتْ عني بغيري ..

تُخفي عني احمرار الوجناتِ

فأمسكتُ بقلمي ..

في غيبوبةٍ عن عقلي

فقطعت قُصاصةً من الورقاتِ

كتبت لها:

رسالةً قصيرةً

موجزة بلحنِ النبضاتِ

عند خروجي من الفصل ..

دسستها في يدها

الناعمة اللمساتِ

ووقفتُ عند البابِ

لأستردَ أنفاسي ..

لأرى وجهها ..

لأرى كُلَ الانفعالاتِ

فتحتْ قُصاصتي الصغيرة

فلم تجدْ غيرَ:

أنا أحبُك يا أحلى الكلماتِ

***

طيبة

حَرِصتْ زوجة خاله طيبة ذات الأولاد الثلاثة على بر هذا اليتيم منذ اليوم الأول الذي وطئت فيها قدماه أرض جنتها الصغيرة، بكل ما أوتيت من عطف وحنان ورعاية واحتواء، وكانت تستحضر في معاملتها له حديث الرسول ﷺ: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة"، متخطيةً بجرأة وثقة حاجز مشاعر أمومتها المتدفقة لأبنائها، ومتجاوزةً عزم عاطفتها المندفعة لضناها، ولكن الإنسان بطبيعته جُبل على غواية الشيطان بأساليبه الماكرة الكثيرة، إلّا من عصمه الرحمن ونجاه منه، فعادته يُزين للإنسان حب نفسه وذاته الخاصة، وتتبع شهوات خصوصياته، فمهما ارتفعت في نفسه منزلة قُدسية الأجر والثواب المرجوة من عند الله سبحانه وتعالى، إلَّا أنَّه يجد في نفسه التخبط بين أمواج طغيان خصوصياته، وبين المنزلة العظيمة لذلك الأجر والاحتساب عند الله .. فمهما انزوت أنفاس المشاعر الذاتية للإنسان خلف ساعات انشغاله في اليوم، إلَّا أنها تقفز لغواية النفس بين فترة وأخرى، كبقع طفحت فوق الجلد واضحة للعيان، يُدركها القريب والبعيد، ويشكو كثيرًا المتضرر منها، فماذا نظن من امرأة ترى

أبناءها الثلاثة وهم يُشاهدون تصرفات جدتهم لأبيهم كماشة مع حفيدها عزُّوز، وما ينال من مكانة وحفاوة وخصوصيّة عندها، مما أشعلت مثل هذه التصرفات غير المسؤولة في صدور أبنائها مواقد الغيرة والحسد والكراهية، وفتحت بابًا للفتنة بينهم ..

بعد وفاة الجدة كماشة استلمت طيبة زمام الأمور، فانفردت بتربية عزُّوز والعناية به أسوةً بأولادها .. شعرت بألم حزنه الشديد على فراق جدته، وعرفت عظمة حبه لها وتعلق قلبه بها .. جدته التي كانت تعيش حياته كلها، وتُشرف على كل صغيرة وكبيرة في ساعات يومه، كانت تُحيي ليّلَهُ قبل نومه بحكاياتها الكثيرة، قدرٌ قد كُتبَ عليه .. استوعب عزُّوز مُراده منذ نعومة أظفاره، عليه أن يُرافق الموت ويشاهده يتخطف من حوله، عرف عزُّوز ألم وحشة الغربة بين جدران الغرفة، وهو يستعيد ذكريات جدته معه، وكل ما في الغرفة يحكي له حكاية عنها .. تركته قسوة الحياة يواجه صعوبة محنة الابتلاء وشدة عزم قدره .. تركته وحيدًا في مجتمعه يلتمس العطف، يبحث عن مشاعر إنسانية صادقة يأوي إلى ركنها كل حين؛ ليقتبس شيئًا من حنانها، من يفقه أن بعض الجراح عطايا؟ وأنّ في قسوة العيش هدايا؟ قد يأتيك الخير مختبئًا في زحام مصيبة، وأشجان بلية، ودموع فقد حبيب وعزيز.

تعلَّم عزُّوز منذ حداثته أن يلجأ للصمت، يكتنز فيه مشاعره الإنسانية المجروحة وعبراته المنزوية عن سائر البشر، تملُّ هذه المشاعر مما استودع فيها من ابتلاءات، فتصرخ بقوةٍ بين الحين والآخر في ساعاته، كألم ضرس يدوي في الرأس بشدةٍ في ساعات الليّل الأخيرة، تصرفات لا إرادية مؤلمة من طيبة، التي درج على مناداتها بالخالة، يشاهدها كل يومٍ كيف تحضن ابنها الكبير (بديَّر) بحنانٍ، وكيف تطبع على خديه القُبلات الدافئة، وكيف تخصه برعاية خاصة واهتمام ملفت للنظر، وكأنها تُعوضه عن أيامٍ سابقة، خصوصًا بعد أن تم انتقال بديَّر لغرفة جدته بعد وفاتها، ومشاركة عزُّوز في خصوصيِّة الغرفة، ورغم هذه التصرفات الصريحة غير الصحيحة والمتعبة لمشاعر عزُّوز، إلَّا أنَّه تعود أن يترك لها في نفسه مساحة كبيرة من الشفاعة والعُذر؛ كي يُريحَ أعصابه الثائرة، ويُبرر تصرفاتها بأنَّها أمه وبديَّر بِكرها، ومثل هذا الشعور نابع من روح إنسانية راقية، تتملقه وتتودد إليه دومًا؛ ليكون عطوفًا متسامحًا مع الخاطئين والمقصرين بحقه، وتزجره بعنف حين لا يُطيعها، فعاهد نفسه على أن يحب جميع النَّاس بلا استثناء، وأن يسير في طريق الخير والمحبة حتى النهاية، وإن كان طويلًا وشاقًّا، وكان يلوذ دائمًا بحنان حضن خاله الذي كسب مودته ورضاه، ونجح في العدل بينه وبين أولاده الثلاثة في كل الأمور، وكم من مرة سمعه يؤنب خالته طيبة على تصرف ما أخطأت في حقه، ومن خلال تواجده معهم منذ طفولته عرف طقوس العلاقة بينهم جميعًا، فعندما يسمع خاله يُنادي على خالته بـ

(طويب) يعرف بأن هذا مؤشر (زعل) منها وعدم رضاه عليها، في حين عند مناداتها بـ (طيِّوبة) عند الحاجة، فعلامة رضى وود وشوق ومقدمات لمشروع (سوالف) .. كان خاله حكيمًا في كل تصرفاته، سمحًا في خلقه مع الجميع، كريمًا في يده وماله، لم يبخل عليه في يوم من الأيام بحاجة له، أو قصر معه في طلب، بل حاول خاله حمد – قصار جهده – أن يسد غياب أبيه وجده في كل تصرفاته وأفعاله معه.

***

المُصور آرام

عندما بلغ عزُّوز السادسة من عمره أخذه خاله مع ابنه بدر للمصور المشهور آرام، الأرمني الأصل والعراقي الجنسية والمنشأ، صاحب كاميرة الصورة الشمسية، المصور الوحيد في مدينة الزبير الذي يستخدم الإضاءة الطبيعية في تصويره، فأجلسه على كرسي خشب بدون ظهر وبدون أذرعة، أمام عدسة صندوقه الخشبي الذي يقف على ثلاثة أرجل، ممتدة من قاعدته السفلية، وجعل خلفه قطعة قماش ذات لون أسود، عُلقت على جدار الشارع بمسمارين من طرفها الأعلى، ويمتد من الجهة الأخرى لهذا الصندوق كِمْ طويل من القماش بعرض 40 سم ذو لون أسود، كأنه ذيل فرس، أدخل المصور آرام رأسه في داخل هذا الكِمْ، ويده في الخارج تعبث في مقياس العدسة وغطائها بمهارةٍ وخبرةٍ دون الحاجة لمشاهدة لمسات يده، دون أن ينظر لها، ويُؤكد على عزُّوز الكلام بأن لا يتحرك، رغم مشاغبة بعض ذباب شارع الإبراهيم لوجهه، ثم يُخرج من داخل صندوقه مسودة الصورة التي التقطها له، والتي عادة ما تُسمى عند أهل الزبير بالمسودَّة، فيضعها مقلوبة أمام عدسة كاميرة صندوقه مرة أخرى، يضعها

على ظهر قطعة خشبة طويلة ممتدة من تحت فم العدسة، ثم يعبث مرة أخرى بيده في داخل صندوقه عبر الكِمْ الأسود، فيخرج منها ورقة سميكة مستطيلة الشكل بيضاء اللون، ويضعها في درج صغير ملحق بجانب صندوق الكاميرا، يحتوي على محلولي التظهير والتثبيت للصورة، وعند ثبات الصورة يسمونها بالعكس، ولأول مرة يشاهد عزُّوز صورته بالأسود والأبيض، بقميص المدرسة الأبيض الجديد الذي اشتراه له خاله مع (البنطرون) والحذاء الأسودين من (مغازة) الحمودي في السوق المسقوف، بعد أن تجولوا بين عدة محلات للبحث عن الأفضل والمناسب في المقاس، ومن أشهر البائعين في هذا السوق، دكان كل من الحزيمي، الغانم، العارضي، الضيف، الفرج، العوهلي، الفضيلي، ثم دكان أبو دلم (يعقوب العجايلي)، المشهور بعرضاته النجدية الموروثة عن الآباء والأجداد .. له دور بارز في العرضات الزبيرية في مواسم الأعياد والمناسبات الخاصة، ويُعتبر (أبو دلم) خليفة (الواگس) المؤسس الحقيقي للعرضات النجدية في الزبير منذ أيام هجرته من نجد، ومثل هذه العرضات النجدية الكثيرة تُوثق عُرى أصالة الانتماء بين الأحفاد والأجداد المهاجرين ..

في عتيِّة تعرف عبد العزيز على مجموعة من الأطفال، منهم حميَّد الذي ولد معه باليوم نفسه، أمه خديجة بنت خالة أبيه، وقيل له إن جدته سارة كانت تتمناها لأبيه زوجة، أسماه أبوه عبد الحميد، إحياءً لذكرى اسم أبيه المُتوفى، وهكذا هم يعيشون في مجتمع كباقي المجتمعات الخليجية،

يتوارثون أسماء الآباء والأجداد جيلًا بعد جيل، كأنها عهدةٌ في ذمتهم عليهم الالتزام بالوفاء بها، وكأنه نذرٌ لا يصح غير الوفاء فيه، يعيشون في سلسلة مغلقة من الأسماء المتشابهة، كأنهم في دائرة كهربائية مغلقة تنتهي من حيث بدأت، أسماءٌ مكررة متشابهة في العائلة الواحدة نفسها، وكأنها متوالية عددية معروفة مستقبلًا؛ مما يجعلك في حرج في بعض الأحيان عندما تُنادي أحدًا منهم، والغريبة في الأمر أنهم لا يحرصون كثيرًا على تسمية البنات بأسماء أماتهم وجداتهم مثل حرصهم على الأولاد، وكان عزُّوز منذ صغره لا يعرف اسمًا لعبد الحميد غير حميَّد، ولا يعرف لابن خاله اسمًا يُناديه به غير بديَّر، حتى في حضور أمه وأبيه، وقد سبق أن حذرته خالته طيبة أكثر من مرة بأن لا يُنادي ابنها بـ بديَّر، كذلك هما لا يُنادونه بغير عزُّوز، وأحيانًا عزيّز، وعادة تصغير الأشياء والأسماء من الموروثات النجدية القديمة التي انتقلت مع أهل نجد للزبير، واستقرت في المجتمع الجديد الذي أنشأوه، وأصل ظاهرة التصغير هو الخوف من الحسد والعين المبالغ في ضررهما على الإنسان، وربما يكون التصغير للتمليح أحيانًا، فالعرب تقول كل صغير مليح، كقول امرؤ القيس:

أفاطِمَ مَهلًا" بعض هذا التَّدلّلِ
وإن كنت قد أَزمعت صرمي فأجمِلي
أغركِ مني أن حُبكَ قاتلي
وأنك مهما تأمُري القلبَ يفعل

فذاع صيت تصغير الأشياء في مجتمعهم، فصغَّروا كل شيء في حياتهم اليوميِّة، كما في قولهم: عنده بويَّت (للبيت)، أكلت عشيي وغديي (للعشاء والغداء)، نمت سويِّعة (للساعة)، شربت حليِّبة وقهيِّوة (للقهوة والحليب)، أكلت خبيَّزة وشربت لبينة (للخبزة واللبن)، ومن الظواهر الاجتماعية الغريبة التي انتشرت بين الشباب إخفاء أسماء أمهاتهم عن أصحابهم وأقرانهم، وحرصهم الشديد على عدم اكتشافها، وهو من الموروثات القديمة؛ مما دفع في بعضهم محاولة اكتشاف أسماء الأمهات ومناداة الشباب بأسماء أمهاتهم، وأصبحت هواية محببة بالنسبة للبعض .. قاموا بتغذية معرفة أسماء الأمهات بمساعدة أمهاتهم وأخواتهم؛ مما كان يغيظ البعض بمناداتهم بأسماء أمهاتهم، وكم من مرة سمع عزُّوز من يُناديه يا ولد سباچة، فكان يحتار بماذا يرد عليه، والعاقل من هؤلاء الشباب يستغرب من غضب وانزعاج عزُّوز وغيره عند مناداتهم بأسماء أمهاتهم؛ لأنهم في الحقيقة هم أولاد أمهاتهم وليسوا أولاد آبائهم؛ لأن أمهاتهم هن من ولدنهم وليس آبائهم.

***

الخميسية

لعزُّوز صديق تعرف عليه أيام دراسته في روضة الزبير .. كان يجلس معه في (الرحلة) .. يسكن في منطقة الباطن .. اسمه أحمد .. تعوَّد أصحابه على مناداته (أحمدوه)، ولم يعرفوا لماذا، ولم يُنكر عليهم هذا الاسم .. لديه مشكلة كبيرة في لفظ حرف الراء؛ ولهذا كان دائمًا يفر من الكلمات التي فيها هذا الحرف، ولكنه احتار كثيرًا فيما يصنعه مع كلمة (الزبيغ)، فكل ما حوله يتكلم بالزبيغ، حتى لهجته مع الأيام أصبحت (زبيغية) بدلًا من خميسية، جاء أهله من الخميسية، الحديثة العهد بالنسبة للزبير، ومع حداثة وجودها أصبحت من المدن الساعية وراء التقدم والرقي والعمران، تقع في الشمال الغربي لمدينة الزبير، أهلها في الغالب من المهاجرين من مدينة (بريدة) بالقصيم، وهم سنيِّون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، جد أحمدوه هاجر من (بريدة)، والخميسية لا تقل عن الزبير شهرة في أيام نشاط الهجرات النجدية، وسبب تسميتها بهذا الاسم يعود لمؤسسها عبد الله بن خميس، من أبناء القصيم، ويقال إن هذا الشيخ لم يختط هذه المدينة إلَّا سنة غرق سوق

الشيوخ القريب منها، أيام الفيضان الكبير الذي اجتاح جنوب العراق، فجعل الخميسية على الهور وقريبة من البر، وجعلها مقامًا صالحًا لجميع أبناء البادية والمتحضرين، وجعلها مهبطًا للمهاجرين من منقطة (القصيم) في تلك الأيام، بعض منهم انتقل من الخميسية واستقر في الزبير، ومن هؤلاء المهندس إياد والد أحمد، الذي عُين محاسبًا في شركة نفط البصرة، في فرع منطقة (البرجسية)، ذات الآبار الغنية بالنفط والمزارع الغنية بآبار المياه، القريبة جدًّا من الزبير، فابتاع له منزلًا في منطقة الباطن، شمال شارع الباطن الرئيسي، مقابل الجهة الشمالية لمسجد الباطن، وجزافًا تُسمى كل هذه المنطقة بمحلة الشمال، التي تمتد من الضفة الشمالية لشارع الباطن جنوبًا حتى حدود بر السلمانية شمالًا، ومن سوق البنات غربًا حتى ثانوية الزبير للبنات شرقًا؛ لأنه في مثل هذه التسمية قد ابتلعوا منطقة الباطن بكاملها، ويسكن خلف الضفة الشمالية لشارع الباطن مجموعة من العوائل الزبيرية النجدية المشهورة، منها: السلوم، الدريب، الصالح، السريع، البقمي، الماجد، الزباد، المحارب، العويدي، العوجان، العرفج، العون، العصيمي، الغوينم، العيسى، العُمر، البلالي، البتيري ..

كل هؤلاء الأصدقاء الخمسة (عزُّوز، بديِّر، حميِّد، أحمدوه، سليِّم) انتسبوا لمدرسة الزبير الابتدائية للبنين، بناءً على معرفة الأستاذ محمد الصالح (المعاون) فيها، صديق الخال حمد، ونديمه على استكانة (الچاي) و(كلاص الماي) في قهوة المُلَّا الواقعة مقابل (الفلكة) الوحيدة بالزبير،

التي تُعتبر صالونًا ثقافيًّا أدبيًّا في الزبير، ومن مدرسي مدرسة الزبير، المدير الأستاذ مال الله سعد الله، محمد الدليجان، سليمان الرماح، سامي الشريدة، محمد عبد الرحمن، عبد العزيز العمر، موسى حسن، عبد الخالق سعيد، عبد الباقي خماس ..

وفي أول يوم من حياة عزُّوز الدراسية يُفاجأ بواقع حياته المرير، فيأتي أحد أصدقائه وينكث له جُرحه المُلتئم، فينزف شريان ألم واقعه من جديد، عندما طلب مرشد طلاب الصف الأول (أ) من جميع طلاب صفه، أن يقف كل طالب منهم بالدور للتعريف باسمه كاملًا، فيفاجأ بعض الطلبة، بأن صديقهم حميِّد اسمه عبد الحميد، واعترض أحمدوه على صديقه عزُّوز، عندما نسب نفسه لاسم عائلة غير اسم خواله المعروفين عنده، فرفع أصبعه مستأذنًا من الأستاذ ليقول:

- أستاذ، عزُّوز چذب!!

- ليش؟

- أعغف اسم أهله، اسم عايلته غيغ.

فيضحك البعض على كلمة غيغ (غير)، ويستغرب البعض الآخر من اعتراضه على اسم أهله، فيطلب الأستاذ من الجميع الهدوء وعلامات التعجب والاستفهام تنط من محياه، ويستغرب كثيرًا من هذا الطالب، لماذا يكذب عليه؟ فيقترب منه ليسأله:

- ليش تكْذِبْ ابني؟

- والله العظيم، ما چذبت أستاذ، هذا اسمي الصحيح، وأحمدوه ما يعرف غير اسم خوالي ..

- من هو أحمدوه؟

- قصدي أحمد إياد يا إستاذ ..

يُراجع أسماء الطلبة في الكشف الذي بين يديه، فوجد أنَّ اسمه مطابقًا لما ذكره عزُّوز، فطلب من أحمدوه الوقوف ليسأله:

- ليش تِكذبْ على عبد العزيز.

- صدقني أستاذ أعغفه زين من أيام الغوضة (الروضة)، هو چذاب ..

- شنو اسمه لَعدْ؟

فذكر أحمدوه اسم خوال عزُّوز للأستاذ، الاسم الذي كان الكثير في مجتمعه ينسبونه له، فكل من حوله يظن أنه ابن الخوال؛ نظرًا لمعيشته عندهم منذ صغره، ومثل هذا الموقف يحدث لكل من يتربى في بيت غير بيت أهله، فعرف الأستاذ مأساة هذا الطفل، فاعتنى به وعطف عليه، وخصه برعاية خاصة، وهكذا عاش عزُّوز بقية حياته في نسب مجتمعه له، بين اسم عائلته واسم عائلة خواله، والشائع عند أكثرهم أنَّه ابن خاله حمد؛ مما يسبب له إحراجًا في كثير من الأحيان ..

عاش عزُّوز طفولته وشبابه كما يعيش كثير ممن في عمره، بين البيت والمدرسة والسكة، وتعرف على الأسواق والأماكن برفقة أصحابه المقربين أو برعاية خاله حمد، الذي كان حريصًا جدًّا على دراسته وتعليمه، كان يأخذه معه لمكتبة الباحسين؛ لتجليد كُتبه وشراء ما يحتاج من مستلزمات مدرسية، أو شراء الكتب والمصادر التي تنمي مداركه وتوسع معلوماته .. لا زال يذكر القلم الحبر (الباندان) مع محبرته اللذين اشتراهما له عند تخرجه من الابتدائية، وتلك الدراجة الهوائية التي اشتراها له ..

***

الخَرَابَة

يجتمع عزُّوز مع رفاقه الأربعة في صباح كل يوم حتى آخر الليل في أيام العطل الصيفيّة الطويلة النهار .. جيلهم يقهر أوقات فراغهم ويفتت الساعات الطويلة .. كانوا جميعهم شبابًا، لا تتجاوز أعمارهم سن المراهقة المبكرة، تستوطنهم أفكار جريئة وتطلعات طموحة .. صعبة التحقق، لكنها تسطع في خيالاتهم كالنجوم في ليلة حالكة الظلام، والفراغ ينتحر عند ساعات شبابهم، فلم يكن لديهم مشاريع سياحة صيفيّة، أو ما يُسمى ببرنامج الترويح السياحي، أو أندية صيفية تحتضن نشاطهم، كما هو عليه الآن مع شباب هذا الجيل .. كانوا يصرفون جل أوقاتهم السياحيّة بين الشوارع و(العوايز)، أو الذهاب لملاعب كرة القدم الترابية الكثيرة المنتشرة في ساحات البر المحيط بالمدينة، أو الجلوس في بيت أحدهم، فيتفضل عليهم صاحبهم بما تجود به والدته من كرم للضيافة من أكل أو شِرب، رغم أن الأكل لم يكن مكلفًا لهم؛ فلديهم قناعة، وأي طعام يُقدم لهم يُعتبر مقبولًا بدرجة الامتياز .. ليس للرفض مكان في جهازهم الهضمي أو المزاجي من حيث النوع، أو من حيث الكمية المتاحة، ولم يعرفوا في حياتهم مطاعم

(الوجبات السريعة) من سندويچات برقر وفرنچفرايز وغيرها، بل لا يُوجد لديهم مثل هذه المطاعم العصرية، ناهيك عن هضمهم للمفهوم الفكري لمسألة النظام الرأسمالي لهذه المطاعم، التي استعمرت الأذواق واقتصاد البلد .. ومعلوم لديهم يجب مقاطعة مثل هذه المطاعم المُستعمِرة؛ لأنها مطاعم يهودية النشأة والفكرة والتكوين، وكان كل الذي متاح لهم سندويچات (الفلافل) و(السمبوسة) التي تبيعها بعض المحلات كسندويچة كاملة أو نصف سندويچة، ومطاعم (الچلفراي)، ولحم القص، ناهيك عن مطاعم الكباب والفشافيش المشهورة، والمنتشرة في الأسواق والساحات العامة وقرب الحدائق، والتي لا تُكلف بائعها غير طاولة مع كم كُرسي ومنقلة وفحم وقوري چاي وملحقاته ..

هؤلاء الخمسة، كل منهم يحب هذه الصحبة؛ محبة أخوة، محبة مدرسة، محبة جوار، ما عدا أحمدوه الذي يسكن في الباطن، هم متعاهدون فيما بينهم على الوفاء بهذه العلاقة، التي نشأت وترعرعت بينهم منذ أيام الطفولة ..

في يوم من الأيام قرروا اكتشاف معالم (خَرابة) مهجورة في سكة عتيِّة، ليست بعيدة عن بيوتهم، مغلقة من الخارج بدون وجود أثر لقفل لها، لا تعرف الخُطوات طريقًا لمخدعها، أبوابها مغلقة من الداخل بإحكام، بابها الخشبي ظهرت عليه علامات التآكل، وطغت عليه ملامح الكهولة؛ فكل مساميره تأكسدت وتفاعلت مع لحاء الخشب، وأصبحت جزءًا من لوح

الباب .. عند مدخل الباب من الخارج كومة من حبات الرمل، جمعه فريق من النمل الأسود الكبير أثناء إنشاء مستعمرته تحت أول عتبة من الباب، كدليل على عدم اقتحام هذا الباب منذ أمد بعيد ..

قرروا اقتحام هذا الباب، والتعرف على ما في داخل هذه الخَرابة، وعندما يئسوا من دخولها عن طريق بابها الشرعي، تسلقوا الجدار المتساقطة بعض أجزائه العليا، والذي يرتفع دون الثلاثة أمتار عن منسوب الزقاق الضيق ..

تم لهم ما أرادوا، فواحدٌ تلو الآخر تسلقوا الجدار بخفة ورشاقة، وهبطوا في باحة الخَرابة، فتصدت لهم قطة ضخمة، ظهرت عليها ملامح التخمة والرفاهية والترف، انفردت في باحتها وتملكت جزءًا من مساحتها، فوضعت صغارها الأربعة بحرية ..

حاولوا نهرها، مرات ومرات، لكنها أبت، وأصرت على منعهم والتصدي لهم والدفاع عن مقدساتها الوطنية، فَقذفها أحمدوه بحجر كبير وقع على ظهرها فأثر فيها، فعرفت مصيرها فسحبت قواتها ذليلة، تجر ذيول الهزيمة من أمامهم، وتبعها فريقها المكون من أربعة مقاتلين صغار لم يبلغوا الفطام بعد ..

شاهدوا حنفية في وسط الباحة وتحتها مجموعة من القدور والأواني والملاعق التي امتلأت بالأتربة، تفوح منها رائحة عواصف التاريخ الرملية، ومظاهر ضريبة الشمس اليومية ..

فجأة قفزت أمامهم كلبة مسعورة لم يعرفوا من أين خرجت لهم، فهجمت على أحدهم ونهشت ثوبه بعد أن رمته على الأرض، فلم يجدوا أمامهم غير قتالها بضراوة، فرفع حميّد أحد القدور المهملة فضربها بقوة على رأسها، فدارت حرب طاحنة بينهم وبينها، أدت في نهايتها لقتلها وتيتم صغارها الثلاثة ..

الخرابة مكونة من باحة ومطبخ وجَاخُور مهجور، مشرع الباب، خال من أثر الحيوانات، ما عدا تلك الكلبة المسعورة التي وضعت صغارها فيه، وغرفة مغلقة بإحكام من الخارج بقفل وسلسلة صدئة، حاولوا فتح بابها، فلم يتمكنوا من فتحه، حاولوا كسر الباب فلم يتمكنوا من كسره ..

أخيرًا قرروا العودة في الغد، على أن يجلبوا معهم لوازم خاصة لفتح الباب، فخرجوا من الخرابة بالطريقة نفسها التي اقتحموها.

عزُّوز، لم يتمكن من إدراك النوم في ليلته .. شغل فكره تلك الخرابة، تراءت له أشباحًا مجنحة تخرج من تلك الغرفة، وسمع أصواتًا مخيفة تستنجد بهم، تُنادي بأسمائهم اسمًا .. اسمًا ..

في الصباح أخبر أصدقاءه بمشاهداته الليلية المخيفة، فضحكوا منها ومنه، بل زادتهم هذه المشاهدات إصرارًا على الذهاب للخرابة مرة أخرى، وفتح تلك الغرفة المهجورة، فتسلقوا الجدار للمرة الثانية، فرأتهم (القطة) فلم تعترض طريقهم؛ لقد أخذت درسًا مستوعبًا من حادثة يوم الأمس،

بل أخذوا معهم لها ولصغار الكلبة شيئًا من الطعام وجالون ماء، فكسروا الباب بمعداتهم، واقتحموا الغرفة المظلمة، فلم يتمكنوا من رؤية ما بداخلها؛ لشدة الظلام المختمر فيها، ولطغيان الروائح الكريهة المنبعثة من داخلها .. حاول أحدهم الدخول، فنهروه، وطلبوا منه عدم المجازفة، عليه أن لا يدخل بغير إضاءة، فتبرع سليّم لإحضار سراج من بيتهم ..

بمساعدة ضوء السراج دخلوا جميعًا للغرفة المهجورة بقدم واحدة، فشاهدوا دولابًا مغلقًا ومجموعة من الثياب المعلقة وسريرًا، ومدفأة تعمل بالقاز في وسط الغرفة، وصندوقًا في أحد زوايا الغرفة، وفي أحد أركانها مجموعة من الكراتين المرصوصة بعناية فائقة .. عصفت أكوام التراب فوق كل شيء في الغرفة، تقاسموا النظرات فيما بينهم بصمت مطبق ينتابه الخوف والشعور بالرهبة، تجرأ أحدهم ففتح الدولاب، فقفزت فأرة، سببت لهم ذعرًا شديدًا، وجدوا بداخل هذا الدولاب مجموعة من الثياب ووجدوا صندوقًا صغيرًا بداخله نقود، لم يتمكنوا من عدها .. اتجهوا للثياب المعلقة، فوجدوا بداخل أحدها محفظة وبداخلها نقود وقراطيس صغيرة .. ذهبوا للسرير، فرفعوا غطاءً فوق الفراش، فتقافزوا وركضوا مسرعين، متسلقين جدار الخرابة، كل منهم يلهث، كل منهم نسي صاحبه، كل منهم يُردد، هيكل عظمي لإنسان ميت!! هيكل عظمي لإنسان ميت!! كل منهم يصرخ بأعلى صوته، هل رأيت يا حميّد؟ هل رأيت يا أحمدوه؟ هل رأيت يا عزُّوز؟ هل رأيت يا بديّر؟ هل رأيت يا سليّم؟

- عزُّوز، بدر .. گوموا يلا بسكم نوم .. تأخرتوا على موعد المدرسة اليوم، تعوذ يا عزُّوز من الشيطان الرجيم، ومن أحلامك المزعجة .. (قالت خالته طيبة وقد غزا البياضُ شعر رأسها) ..

***

الخاكي

حاول سليّم كثيرًا مع والدته (فطوم)، التي هي في أعتاب الخمسين من عمرها على ترك بيع (الباجلا) للنَّاس، فهو يكره هذه السيرة فيها، فالنَّاس تنظر إليه أنه ابن بائعة (الباجلا)، وبيتهم يطلق عليه بين سكان المنطقة بيت (أم الباجلا) .. شيء حيوي سُحق في روحه منذ وفاة والده، وهبوط مستوى معيشتهم إلى حدٍّ كبير، وكان عليهم التأقلم مع الحرمان، ولم يفكر أبدًا لماذا هو يحتقر هذه المهنة، ولم يعلم بأنَّ أمه (فطوم) تصنع حياة كريمة لعائلتها وبيتها .. لم يُفكر سليّم بأنَّ للفقر كرامة، وعليه أن يستشعر عظمته، وكان ينتظر تخرجه وحصوله على شهادة الدبلوم من معهد المعلمين في البصرة بفارغ الصبر؛ ليساعد أمه في مصاريف ميزانية البيت، ولكن كان يوم تخرّجه يومًا أسود في تاريخ حياته، فخدمة العلم – كما يقول المتفلسفون – تنتظره عند بوابة المعهد، بملابسها (الخاكية)، كيف السبيل للتخلص منها؟ كيف السبيل لتخفيف شدة لهيب لسعاتها المحرقة؟ حملته قدماه لدائرة التجنيد بالبصرة دون رغبة، وبتباطئ استلم الخاكيات وتركَ أثر بصمة إبهامه الأيمن فوق صفحة سجلاتهم الضخمة .. ذهب للخياط أكثر

من مرة لتقويم مقاسات بدلته العسكرية .. ابتاع بسطالًا مستعملًا يُناسب مقاس قدميه .. جمع أصحابه في منزلهم، وعمل بروفة أمامهم بزيه العسكري .. نام مبكرًا؛ كي يذهب قبل طلوع الفجر للمعسكر الذي وجهوه له ..

في أول يوم له في العسكرية حشروا العشرات من طلاب الجامعات والمعاهد في عربات عسكرية، كل واحدة منها تُسمى (زيِّلًا) .. شاحنة نقل بضاعة، حُولت لعربة نقل أفراد (جنود)!!

سليّم لا يعلمْ أين يذهبون بهم!! ولا أحد من الجنود الذين معه يعلم ذلك!! من يملك الشجاعة من هؤلاء الأفراد المحشورين داخل العربات ويسألهم؟ لا يُوجد .. هبطوا بأرض صحراوية جرداء لم يرَ سليّم تربتها من قبل،كل ما فيها ميت، بما فيها المشاعر الإنسانية، أخذوا (أصحاب الشهادات) ليقفوا في طوابير متراصة أمام منصة القيادة المسقوفة .. يجلس على كنبها ثلاثة من ضباط الركن في ساحة العرضات، ينادون بأرقامهم العسكرية بدلًا من أسمائهم المدنية، ومن يسمع رقمه عليه أن يتقدم للمنصة؛ ليُلقي التحية العسكرية للقيادة، ثم يُعرّف سيادة القادة باسمه وشهادته وبلدته ..

نعم .. يصرخ فيها سليّم مدوية بأعلى صوته في ساحة العرضات عندما سمع رقمه، الذي كرره البارحة ألف مرة لحفظه، فتقدم وضرب الأرض بعنفٍ ببسطاله الجديد، وعرفهم بنفسه:

– سليمان .. محافظة البصرة، مدينة الزبير، من خريجي معهد المعلمين بالبصرة ..

فقال أحدهم اسمه (كمال)، الذي كان يرتدي بدلة المغاوير العسكرية ويحمل مسدسه كالمعتاد:

– أريده عِدِي بالوحدة ..

فعلق الآخر الذي اسمه (حُمود) مازحًا معه حسب الميانة:

– تريده يجيب لَكْ كلوصات جگاير روثمن وعطورات من مغازات الزبير؟

فضحكا سويًّا بحضور صمت أفواه الطابور الطويل ..

وفعلًا في أول يوم طلب منه جگاير روثمن، فأحضر له (كلوصًا)، ثم (كلوصين) من الجگاير حتى أرهق ميزانية أمه (فطوم) المتواضعة ..

– سليمان .. (ناداه كمال) ..

– نعم سيِّدي ..

– أنتَ شتعْرُفْ؟

– أعَرِفْ أدرس سيّدي ..

– وغيره شتعْرُفْ؟

- ما أعَرِفْ شي سيّدي ..

- تُعْرُفْ تسوق سيارة؟

- نعم سيّدي ..

- من باچر شغلك سوَّاق بالبيت.

كم شكر الله الذي أنقذه من المعسكر وتدريباته المرهقة، ناهيك عن حراساته الليلية المتعبة، ونوع أكل المعسكر السيء ..

تعرف على حَرَمِه المصون، الست (لَمِّيعة) .. رَكبتْ السيارة العسكرية وعطرها يسابقها للمقعد الخلفي .. اتخذت مكانها دونما سلام، نظر إليها في المرآة التي أمامه وهي تستعرض مفاتنها الساحرة بذلك الغنج الأنثوي الباهر الذي يجذب كل الأنظار، فعرف أن كل ما فيها يدعو للفتنة ..

بعد مرور أيام اعتاد على رؤيتها، وتعرفتْ هي على عنفوان شبابه .. عَرَفَتْ أنه قادم من جنوب البصرة .. سألته أسئلة كثيرة، كان يُضللها في إجاباته المُختصرة دون داعٍ منه .. طبعٌ في أهل الزبير، لا يكشفون عن هويتهم الشخصية للآخرين بسهولة، ويُعتبر مثل هذا الطبع من الموروثات النجدية التي لم تتأثر بمخالطة أهل العراق المنفتحين على جميع النَّاس؛ لذا فإنَّ لمِّيعة لم تفلح بانتزاع أية إجابة ذات فائدة منه ..

تخرج كثيرًا لأماكن متعددة، ولأسواق متنوعة، هي مجنونة في الشراء، في كل عودة لها من السوق تحملُ أكياسًا كثيرة .. تصغر كمال بعشر سنوات .. كمال يحبها كثيرًا، ولكن عُش غرامه لا يكاد يخلو من عشيقات له، يحضرهن لنادي الضباط معه في بعض الأحيان، عرف سليّم أنها تعشقُ العطر بجنون، فطلب من صديق له يعمل بالكويت زجاجتين لعطر نسائي، من النوع الغالي والعالي التركيز، على أن يقوم بسداد قيمتهما في المستقبل، أرسل له صديقه العطر بعد أسبوعين من توصيته، وتردد في تقديمه لها .. أسئلة كثيرة غردت بقوةٍ في ساحة حساباته، وجعلته يتراجع عن تقديم العطر؛ أولها ربما لا تقبله!! وثانيها ماذا سيحدث لو أنها أخبرتْ كمالًا؟ فهاجس الخوف أحاط به من كل الجوانب، وكانت الأفكار المتناقضة تزلزل فكره من كل جانب، فقرر تأجيل تسليم العطر لوقت آخر؛ من أجل التفكير بمنافذ آمنة لا خوف فيها، فاحتفظ بالعطر دون إعلان لمراسيم تقديمه كهدية، وذات صباح كان في انتظارها عند باب منزلها، كعادته يركن السيارة، وينتظرها لتأتي، فتقوده للجهة التي ترغب الذهاب إليها، فرآها لأول مرة تخرج بعباءة سوداء اللون، وتطلب منه أن يتحرك بسرعة، ومن شارع إلى شارع آخر، ومن منطقة إلى منطقة أخرى، ثم طلبت منه أن يتوقف في منتصف شارع بيروت وتنزل، فانصرف بعدما طلبت منه العودة بعد ساعتين ..

وفي الموعد المحدد وجدها واقفة تحت مظلة موقف مصلحة نقل الركاب تنتظره، فدلفتْ للسيارة بعباءتها، وكررت هذا التصرف عدة مرات، فحاصره حب الاستطلاع من كل جانب، واستنطق في نفسه الرجولة والشهامة والنخوة، فقرر معرفة سرها وكشفه .. من الممكن أن تكون خيانة سياسية، أو خيانة عسكرية، وفي كلا الحالتين ستكون جاسوسة على هذا البلد وعلى هذه الأمة، ومن الضروري كشفها وفضحها أمام الآخرين، فوضع في السيارة ثوبًا أبيض اللون وشماغًا أحمر .. لبسهما بعد أن ركن السيارة العسكرية في موقف منزوٍ عن الأنظار، ثم انطلق في أثرها، فرآها تتحرك في الاتجاه المعاكس لخط سير المركبات، فتبعها وتعقب أثرها، فسلكتْ نافذًا ضيِّقًا، فسلكه خلفها، ثم دخلتْ فيلا جميلة، فتجاوزها؛ كي تطمئن بأنه لا يتبعها، وبعد ربع ساعة عاد أدراجه لتلك الفيلا .. دخلها من السور الجانبي، وحاول التلصص من خلال زجاج النافذة التي تُغطيها أوراق شجرة التين الكثيفة، فشاهدها تجلس مع رجل في بقايا ثياب، كأنه رأى ملامحه من قبل، ولكن من يكون؟ أشباهه ليست بغريبة عليه، حتمًا رآه سابقًا، ولكن أين؟ نعم تذكر لقد تمكن من استعادة ذاكرته .. شاهده في ساحات العرضات في أول يوم له بالمعسكر، كان يجلس بجانب كمال .. إذًا هو ذلك الرجل الذي علق عليه .. إنه العقيد حُمود ..

في اليوم التالي لمعرفته بحال واقعها، تلاشت احتمالات مخاوفه، فتجرأ وقدم لها العطر بعد أن وضعه في كيس أحمر، رسم عليه بخط يده قلبًا

مضروبًا بسهم، وكَتب داخل القلب: هل تقبلين هديتي يا وردتي؟ فتحتْ الكيس وشاهدتْ العطرين الثمينين جدًّا، والنادر وجودهما في أسواق بغداد، فقالت: آه .. كم أحب هذين العطرين .. آه .. كم أعشق عطرهما، ومنذ تلك الساعة امتدت جسور العطور بين القلبين المكتنزين حبًّا وشبابًا بوقاحة، وعرف سليّم بأنَّ ما يظهر جميلًا أمام العين للوهلة الأولى قد يكون محض قناع زائف، يخفي الوجه الحقيقي البشع .. فسرعان ما يسقط هذا القناع، ويكشف لنا عن الحقيقة، وعادة ما تكون الانطباعات الأولى خاطئة ..

وكعادته في كل صباح، يذهب لمنزل لَيِّعة، فوجد الإسعاف والشرطة يطوقان المكان من كل جانب، شاهد كمالًا مذعورًا بهذه المصيبة، مقتل زوجته لَيِّعة، بثلاث طلقات نارية في رأسها أثناء مناوبته الليّلية في المعسكر .. حَزِنَ سليّم حُزنًا شديدًا على فِراقها ومقتلها، وبالوقت نفسه خاف كثيرًا من هذه الأحداث المتداعية بسرعة على نفسه ..

وبعد يومين من وقوع هذا الحادث الأليم أعادوه لوحدته في المعسكر، حيث سجل الحضور والانصراف، والطابور والتمارين الصباحية الشاقة، كما أن كمالًا دخل المستشفى إثر نوبة قلبية ألمت به من كثرة التحقيقات الجنائية المتعبة له ..

في اليوم الثالث لهذا الحادث، وبينما كان كمال منومًا في المستشفى يسمع جيران العقيد حُمود صوت طلقات نارية من فيلته، فيتراكضون لداخل الفيلا ليشاهدوا حُمودًا في بركة من الدم، يُقاوم لحظاته الأخيرة من سكرات الموت؛ إثر إصابته بثلاث طلقات نارية في رأسه ..

***

الهوايات

للشباب هوايات كثيرة ومتعددة في تصريف أوقاتهم الفائضة، وتنشط عادة مثل هذه الهوايات في أيام العطلة الصيفية؛ فمنهم من تعلق قلبه وعقله بالمراسلة، وحُب التعارف على أفراد المجتمعات في أصقاع الأرض، فتشاهده يلهث خلف جمع المجلات الملونة من هنا ومن هناك، والتي تحتوي على صفحته المفضلة، هواة المراسلة والتعارف مع الجنسين، ويدفع المبالغ الكثيرة من مصروفه اليومي المحدود؛ لشراء الطوابع البريدية، وإرسال خطابات التعارف المعطرة بأجمل كلمات الحب والصداقة والمشاعر الإنسانية، ومن هؤلاء ابن خاله بديّر، الذي أتقن صياغة أسلوب التعارف، وتفنن في ديباجة رسائلها، وحرص على شراء دفاتر الرسائل ذات الأوراق المعطرة والمظاريف المصبوغة بالألوان الزاهية الجميلة، المزينة بعبير الورد وقلوب الحب الحمراء، وكَتَبَ رسائل أسطورية خلال فترة هوايته، ليس بحبر قلمه الأزرق السائل فقط، بل بآهات قلبه وأنفاس شوقه وهيامه، ترك روحه تنسكب على الورق مباشرة دون قيود لها .. لقد توسع في مجال

هذا التعارف لما هو أبعد من الرسائل والخطابات البريدية، وإرسال الصور ومراسلة هواة المجلات؛ فقد أثمرت شجرة صداقاته البريدية عن ثمرة تبادل للزيارات، فجاءه صديقه البريدي الذي اسمه (مؤيد) من الموصل مع أهله في زيارة لمدينة البصرة، قاصدًا التعرف عليه عن قُرب، بتشجيعٍ من والده، فالتقى به في منتزه الخورة لساعات، وقدمه لوالديه، وتعرف على أهله، ودار بينهم حديث الطموحات المستقبلية، وماذا تتمنى أن تكون في المستقبل، فكانت أمنية صديقه مؤيد أن يكون دكتورًا كأبيه، أما بديّر فكانت أمنيته أن يكون مديرًا لبنك، أما سليّم فكانت هوايته مراسلة الإذاعات ومحطات التلفزيون .. كان يهوى التواصل مع برامج ما يطلبه المشاهدون والمستمعون، وكان حريصًا على حفلات (الكيوف) الموسيقية، التي عادة تُقام في البر أيام المخيَّمات الربيعيَّة، وأشهر هذه الكيوف الموسيقية عادةً تُقام في القصور؛ في بر منطقة چويبدة، أو في بر منطقة الگريطيات، ويذكر سليّم جيدًا مشاركاته في الحفلات التي تُقيمها الجامعة سنويًّا، وكان من فرقة هواة الطرب والغناء، فالأغنية لا تسقط عن دندنة لسانه حتى لو كان لوحده، وكثيرًا ما نهاه والده عن مواويله المزعجة، التي يصدع بها في خلوته في دورة المياه بأعلى صوته، وكان يقول له:

– وَلَكْ، لو صوتك حلو مثل أصوات المطربين هَمَّ چَان قبلناه منك، ولكن صوتك مثل صوت صخلة صارف ..

وكم كان سليّم سعيدًا وفخورًا في طفولته عندما قامت (ماما أنيسة) بعرض صورته وإعلان اسمه أمام المشاهدين في أحد حلقات برنامجها الخاص بالأطفال، الذي كان يُبث من تلفزيون دولة الكويت، ومن هؤلاء الشباب من كانت هوايته جمع الطوابع القديمة والحديثة على حد سواء، فكان حميّد حريصًا على متابعة المجلات التي تحتوي على ركن هواة الطوابع، والبحث عن من كانت هوايته جمع الطوابع وتبادلها في مدينته، فدفع مبالغ كثيرة لشراء طوابع وألبومات خاصة فيها؛ مما اضطره أن يعمل بسوق الخضرة في أيام الإجازة الصيفية؛ حتى يتمكن من شراء مجموعة من الطوابع الحديثة، وكان يتردد على مكتب البريد بين فترة وأخرى؛ ليأخذ منه طوابع الرسائل التالفة، وكانت هواية المراسلة وهواية جمع الطوابع نوع من أنواع الثقافة في عصرهما، افتتن فيها الشباب أيما افتتان، وبعض منهم افتتن في تنمية عضلات جسمه واهتم بكمال الأجسام ورفع الأثقال، فانكبوا على شراء مجلات كمال الأجسام المترجمة للعربية، وقلدوا عدة أبطال عالميين، وقليلٌ جدًّا من الشباب أغواهم هواية المطيرچيَّة، فتعلموا فن تطيير الحمام، ويذكر عزُّوز جيدًا مأساة ذلك اليوم المشؤوم الذي اشترى فيه مع ابن خاله بديّر زوجين من الحَمام (الدشي) من سوق الحَمام، الواقع مقابل قهوة (عجيمي) من جهتها الشمالية، فبنيا للحَمام في ركن من سطح المنزل (محكر) من تنك وخشب و(شبك جالي)، واشتريا (جزة) مستعملة من أحد المطيرچيَّة لصيد الحمام (الغادي)؛ من أجل محاكاة بعض المحترفين

المشهورين والمقيمين بالقرب من منزلهم .. هما كل يوم يُشاهدان (يُوقة) حمام تُحلق في فوق سماء دارهم، وتعلما منهم طريقة فن صيد الحَمام (المواچل)، وعرفا صفات الحَمام الطيب الغالي الثمن في السوق، وفهما ماذا يعني للمطيرچيَّة (اللوت) والحَمام (القلابي) وألوان الحمام، من ماشي، أسود، أحمر، أحرق، خمبي، حسيني، دخاني، جزازي، صخري، عنبري وغيرها، ولكن عندما علم خاله بتربيتهما للحمام من وكالة أنبائه الخاصة زوجته (طويب)، ذهب للسطح وأحضر الحمام أمامهما، وفي يده اليمنى موس حلاقة جديد لم يمس الذقن بعد، وذبحهن أمام أعينهم بعد أن قال: بسم الله، وناولهن لزوجته، وقال:

– طويب .. اليوم غدانا حَمام، وخلي اللحم لباچر، وباچتهن ذبيها للعتوي الأگطم (مقطوع الذيل) ..

– أبشر .. إن شاء الله بوبدور ..

أما عزُّوز فيعتبر نفسه مدمن قراءة في وقت مبكر، ولم يتمكن من رصد صاحب هذا الفضل الكبير عليه .. لا يذكر من زرع بداخله هذه البذرة الثقافية، وكان دائمًا إذا سُئل عن سبب حُبه للقراءة يعزوه للنشاط الطلابي المدرسي المُشتَرِك فيه في المرحلة الابتدائية، الذي كان له الدور الكبير في هذا الحُب .. قرأ القصص بشراهة عجيبة، فاستولت عوالمها المثيرة على خيالاته التي لا تحدها حدود، وكانت تُثير أقصى قدرة لديه على الدهشة

والانبهار .. بدأ بقراءة قصص الأطفال، مثل قصة (العندليب والملك)، التي أبهرته بروعتها، وشغلت تفكيره، ثم تعرَّف على المجلات المتاحة في المكتبات العامة ذات الأعداد القديمة، وبدأ يستأجر الأعداد الجديدة منها من مكتبة الباحسين لمدة يومين أو ثلاثة أيام بعشرة فلوس أو بعشرين فلسًا، حسب مدة الإيجار أو نوع المجلة المستأجرة، وأشهر هذه المجلات التي قرأها في المرحلة الابتدائية (الرجل الوطواط) و(سوبرمان) و(بساط الريح) و(السندباد)، وفي المرحلة المتوسطة قرأ كتاب (ألف ليلة وليلة) في مكتبة الزبير الأهلية، ثم تعرف على الكتب البوليسية وعشق قراءتها، والتي أشهرها مغامرات أرسين لوبين وشارلوك هولمز، وقرأ معظم روايات أغاثا كرستي، وسمع عن بعض الروائيين العرب، مثل نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، فقرأ لهما مبكرًا، ونصحه أحد رواد المكتبة الوطنية بقراءة كتاب (الأيام) لطه حسين .. ولم تكن كُتب الرواية هي فقط من سلبت عقله، بل قرأ الكثير من الكتب النقدية والعلمية والفلسفية منذ وقت مبكر من شبابه؛ ففي المرحلة الثانوية قرأ كتاب (اللامنتي) ولم يفهم كل ما فيه، كما حاول عدة مرات قراءة كتب كل من سارتر ونيتشه، فلم يفلح عقله في إدارك ما فيها من فكر وفلسفة، وقد أثار ميله للعزلة والاعتكاف في مجلس الديوان وقضاء ساعات طويلة لوحده مع الكتاب، شكوك خالته طيبة، فتصنَّعت بخبث النساء خوفها على عقله من هذه الكتب التي يقرؤها، والتي جعلته يختبئ عنهم وعن أصحابه في كثير من الأوقات، جعلته يفضل

عدم الخروج مع ولدها العزيز بدر في كثير من الأحيان، فرفعت فحوى شكوكها وشكواها لخاله حمد؛ بدافع الخوف من تأثير هذه الكُتب، وفي حقيقة الأمر هي تُضمر في نفسها الغيرة والحسد لابنها، الذي ليس له ميول ثقافية كعزُّوز، فأخبرت زوجها حمد عن الكتب الكثيرة المكدسة في مجلس الديوان وفي غرفته حول سريره، فما كان من خاله حمد إلا أن استغل غيابه عن البيت، فوضع بعضها في كيس وحملها لقهوة الملَّا ليطلع عليها بعض المثقفين الذين يعرفهم ويثق بهم؛ ليتعرفوا عليها إن كان بها شر، ومن أغلفتها وأسمائها عرفوها، وأخبروه ليس فيها ما يُثير خوفه عليه، بل هنئوا خاله على هذا الشاب المثقف الذي يسكن بينهم، وطلبوا منه الاهتمام به ورعايته، بل أرسل أحد أصدقاء خاله في قهوة الملَّا لعزُّوز هدية، عبارة عن بعض روايات جرجي زيدان التاريخية، وكانت بداية معرفته بهذا الكاتب، الذي سمع عنه كثيرًا، ولم يكن قد قرأ له ..

***

نيروز

لم تكن كتب الرواية والفكر والفلسفة فقط من أخذت بشغاف قلب عزُّوز، بل كُتب الشعر كذلك أخذت حظها من ثقافته واهتمامه؛ فقد عشق الشعر وقرأ الكثير منه، وحفظ عن ظهر قلب عشرات القصائد لشعراء عرب من بعض العصور القديمة ومن معاصرين، وتعلم أوزانه، ولكنه لم يتمكن من نظم أية قصيدة بصورة صحيحة، وقرأ لشعراء عراقيين معاصرين، مثل السيَّاب ونازك الملائكة، وعشق شعر نزار قباني وتأثر به، وجمع مجموعة من كُتب شعره، وحاول تقليده في عدة قصائد شعرية .. كتبها عندما وقع في حُب (نيروز)، حينما كان في السادسة عشر من عمره .. فتاة جميلة، لم تكن تعرف أرض الزبير مثل خصوبة جمالها، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود فاحم طويل، لعينها الواسعتين سحرهما الخاص، كان في الصف الخامس العلمي، وقد بدأ العام الدراسي الجديد توًّا .. التقاها في أحد الأيام عندما كان ذاهبًا إلى مدرسة ثانوية الزبير .. لمحها واقفة قرب ستوديو الزبير للتصوير لصاحبه محمد الحميدان، ترتدي (التنورة) الزرقاء والقميص الأبيض، المفتوحة أزراره من فوق قبة صدرها المكتنز بأنوثته،

والمستور عن العيون المتلصصة بربطة عنق زرقاء رفيعة وقصيرة .. كانت تنظر في زجاج المحل؛ محاولة إعادة ترتيب شعرها الذي بعثرته العاصفة الخفيفة، ومحاولة شده بشريط أبيض كضفيرة تتحرك خلفها مثل ذيل الحصان .. كان مرتديًا بنطلونًا أسود وقميصًا أصفر نصف كم .. لفت نظره جمالها عند مروره بالقرب منها، فتوقف بحجة النظر للصور الكثيرة، المعروضة خلف زجاج صندوق الفترينة، الصغيرة منها والكبيرة .. استغرب من أصحابها الذين يُصرون على عرض صورهم الشخصية في مثل هذه الأماكن .. لم يُدرك غايتهم من عرضها في واجهات الشوارع لينظر لها المارة، نَظرتْ لوقوفه بقربها وتطفله على خصوصياتها بعينين ملتهبتين، تودان حرقه حيًّا، رغم أنَّه لم يبالِ لنظرتها المستعرة الحارقة، فالتفت إليها وبكل برودٍ قال:

- الزِّين ما يحتاج يتزيِّن، والكشخه ربي عطاه وما قصر!!

لم ترد على تعليقه السخيف، ولم تبالِ في وجوده بقربها، ولكنها عَبَستْ بوجهها، وواصلت سيرها لثانوية الزبير للبنات، والواقعة في منطقة العراص. وفي اليوم الثاني ترصدها عند المكان نفسه، فشاهدها قادمة مع زميلة لها لم يكتشف الجمال طريقًا لجسمها، فمر من قربهما، ولكنها لم تبالِ بمروره، ولم تكترث بعبث شبابه الصبياني، فاضطر أن يُغير طريقه، ويسير خلفهم نحو جهة الشرق، متعقبًا أثرها لثانوية الزبير للبنات، بدلًا من ذهابه

لجهة الغرب، حيث مدرسته الواقعة قرب الجمرك القديم، وعند باب مدرستها، تلتفت لمن خلفها بوجه كالح يغشاه التهديد والوعيد، رغم محاولتها ضبط أعصابها والتحلي بالهدوء ..

انتظرها عدة أيام قرب ستوديو الزبير، ولكنها تغيبت عن المرور في خط سيرها المعتاد، فعرف أنَّها غيرت خط طريقها، فوقف عند سور حديقة العراص الشمالي الغربي، المواجه لمدرستها؛ ينتظر وقت خروجها (الهدة)، فرآها تخرج من الباب الأخضر مع زحمة الطالبات، مع زميلتها نفسها التي يُنكر الجَمال معرفة وطنها، فتبعهم خطوة بخطوة، وعرف موقع بيتهم، الواقع في أحد أزقة منطقة الكوت .. كان منزلًا من الطراز الحديث (المقبق)، المبني على الطراز الحديث من الطابوق والكونكريت، الذي له شبابيك تفتح على الشارع، ليس به باحة كباقي بيوت الزبير، فظن أنَّ أباها لابد أن يكون ثريًّا أو مسؤولًا كبيرًا في أحد الدوائر الرسمية ..

في اليوم التالي لمعرفة منزلها وقف ينتظرها على أحر من الجمر قريبًا من بيتهم، حاملًا كتبه المدرسية بيده اليسرى، وقد جهز رسالة في يده اليمنى، في نيته تسليمها لها .. لقد وقع أسيرًا في حبها، فلم يتمكن من الانفكاك عن التفكير فيها .. شاهد عسكريًّا يضع مجموعة من النجوم اللامعة على كتفه، لم يتمكن من معرفة كم عددها، يخرج من بيتهم، فظن أنه لا محالة هو والدها، فدخل في قلبه الرعب والهلع غير المبررين من مظهر بدلته

العسكرية ونجومها المذهبة، وأخذ يهتز وكأنه تعرض فجأة لنوبة برد مفاجئة، فتردد في مغادرة المكان بسرعة أو الاستمرار في الوقوف لحين خروجها، وهل بعد هذا الجهد والتعب يتراجع عن مشروعه في التعرف عليها؟! ولكن قبل أن يحسم أمره بقرار مع نفسه خرجت، وطرقت الباب الذي مقابل منزلهم، فخرجت منه زميلتها ورفيقة دربها، التي عادة ما ترافقها في الذهاب والإياب، وكأنها حارسٌ لجمالها، وعند مرورهما بقربه رفعت رأسها ونظرت باتجاهه، فلم يستطع إلَّا أن يبتسم لها، فأشرق وجهها بابتسامة له، فأصابت سهام عينها قلبه، واخترق سحر بسمتها عقله، فصار مسحورًا بها، فتبعهما بهدوء، ودس رسالته الأولى في يدها دون أن يلاحظه أحد، وابتعد عنهما قليلًا ..

في تلك الليلة جلس في غرفته وكتابه بين يديه؛ محاولًا المذاكرة، إلا أنه لم يستطع التركيز .. كان فكره مشدوهًا، كان مربوطًا إلى مغامرة النَّهار المثيرة .. كانت تجربته الأولى في مضمار الحُب الذي قرأ عن قصصه في الكتب .. وجد نفسه فجأة عاشقًا، مغامرًا، شاعرًا .. شعر بأحاسيس رومانسية تسري في خلايا جسمه .. عرف بأنَّ اسمها (نيروز)، كُردية من مواليد محافظة أربيل، هم من سكان مدينة بغداد، والدها عسكري برتبة نقيب، نُقل لقاعدة الشِّعيبة منذ عام كجزاء عقابي له على تهاونه في أداء واجباته العسكرية .. تبادل عزُّوز معها الرسائل الغرامية الكثيرة والصور

الفوتوغرافية واللقاءات المحاطة بالسرية التامة، وكتب فيها الشعر والخواطر، ومن شعره الذي كتبه فيها قصيدة (بين زوايا حُبكِ):

بين زوايا حبكِ

أُخبئُ (بُقشةَ) جدتي ..

جمعتُها من (كنتورها)!!

في قيلولةٍ، كانتْ في سباتٍ ..

لا تشعر بمن حولها

وجبةٌ دسمةٌ غيبتْ حضورها ..

ماشٌ بالتمنِ وكأسُ لبنٍ رائب ..

بين عطور (خَنتِها) ..

أشمُ رائحتكِ!!

أتنفسكِ في قماشِ (الملفعِ)

ورائحةُ الحناءِ.

ورائحةُ صابون الرقي ..

تهربُ من بين خُصلاتِ شعركِ ..

أيتها النيروزة:

اتركِي أنفي ..

في صحنِ وجهكِ ..

واتركي أنفاسي تتحررُ ..

من سجنِ صدري !!

هدوء حُبكِ ..

يُذكرني بذلك الليل الطويل ..

يتخاطبُ فيه الظلامُ بهمسٍ ..

والخفافيشُ فيه تتطايرُ ..

بين شقوقِ (الطرماتِ) مَخْدَعُها ..

والويلُ لمن يُعكر مزاجَها !!

وفي قلب (الحوشِ) تنبتُ سدرتها ..

مأوًى للعصافيرِ والديدانُ تأكل خضرتها ..

حُبكِ يتراقصُ في قلبي ..

كلحيةِ فانوسٍ في عاصفةٍ ..

أسأله أن يقاومَ ريحها ..

وأن لا (يثقب) في الظلامِ الحالكِ ..

يشتدُ البردُ فأبحثُ عنكِ ..

أبحث عن ذاك الحضن الدافئِ!!

ثم سرعان ما رحلت عن حياته كفص ملح ذاب، فبعد عام من معرفتها جاءت له في أحد الأيام لتقول: إن والدها تم إعادته مرة أخرى لمعسكر قاعدة الحبانية الجوية، وسيستقرون في بغداد .. كانت حزينة يلوح الألم في وجهها الذي غابت عنه الابتسامة، فحزن حزنًا شديدًا على فراقها، وفي الوقت نفسه حمد الله أنَّ فراقها لم يكن موتًا كما يحدث معه دائمًا، فعادة يأتي الموت ليفرض عليه فراق أحبابه وأصحابه وخلانه، وهذه طبيعة الحياة؛ التقاء وافتراق ..

***

المُوحيَّات

ومن محاولات عزُّوز الشعرية التي لم يُكتب لها النجاح، قصيدته التي يعتزُ بها ويفتخر بين زملائه؛ لأنه ألقاها في الطابور الصباحي أمام الطلاب والمدرسين في ساحة ثانوية الزبير، والتي نعتها باسم (خلف الجدار)، يقول فيها:

(1)

نظرتُ من خلف الجدارِ

فرأيت طفلًا ..

يتحرك ببطءٍ ويُداعبُ حجرًا

يتغنى بأناشيد الموتِ

ويُردد في جوفه أين المفرَّ؟

(2)

لا .. ربما هو يستنطق الحجرَ

كي يرويَ لهُ:

قصةَ أبيه الذي احتضرَ

بين عرباتٍ ..

بين مدرعاتٍ ..

وهل يستطيعُ الموتُ أن ينتظرْ؟

يوم كان جنينًا ..

في بطن أمهِ ..

يوم كان أبوه يُندد لا .. للمؤتمرِ

لا للشجبِ ..

لا للمعارضةِ ..

لا للكيان الغاصبِ ..

لا لمنظماتِ البشرِ ..

(3)

لا .. ربما هو ينتظر صحبتَهُ

الذين .. استوعبوا الدرسَ

استوعبوا رميَ الحجرِ

تعلموا .. أن الظُلمَ سيزولُ

وبايعوه على قتل القهرِ

أو وأدهِ .. في ظلمة النفسِ

في ظلمة الليل

قبل بزوغ الفجرِ

(4)

لا .. رأيت الطفلَ الصغيرَ

يقذفُ دبابة بنصف حجرٍ

لا يهاب الموت

لا يخاف السجان

هو يعلمُ أن حياته قدرٌ

فالموت أمام الغاصبِ بطولةٌ

وإنها لشهادةٌ تُنتظرُ

والزحف لا محالة قادمٌ

قد طال ليّلهُ .. فتذمرْ

(5)

لا .. رأيت شابًّا يافعًا ..

يمتطي حماسةً وشجاعةً ..

وبقايا نصرٍ

تفقه بالدين ..

وعرف أن السكوت جريمةٌ لا تغتفرْ

وأن في الموت حياةٌ ..

طالما أولى القبلتين يحتضرْ

ومن قصائده الشعرية الأخرى التي نظمها ولم ترتقِ لمنسوب القبول والتداول؛ لضعف قناة النشر، اسمها (أطيافُ حنين):

أطيافٌ ..

تسافرُ بأيامي العارية

شوقًا ..

هكذا كان الحنين

حين حط في أرضنا

وتفتحتْ زهرةُ الضجيجِ

بمائها الحزين ..

نهضَ الصبر من سريرهِ ..

غسلَ وجهَهُ بماءِ اليقينِ ..

أطلقهُ في العراءِ

لا يهاب المستحيل ..

لم يرنِ الأمسُ

ألبسُ ثياب السفرِ

لم يرنِ حارسُ التقاليد

أحملُ بين يدي صُرةَ حبي ..

كمجنونٍ في قارعة الطريق

يقتلني الفراقُ بنابهِ

يغرسُ في صدري مخلبه الطويل!!

محاولًا ..

قتل ذلك الجنين

يمضي الهواء حاملًا أنفاسكِ ..

مشبَّعًا برائحةِ الحنين

يشقُ القَدرُ صدرَ أحلامنا

وتصيح الحياةُ:

ويَّ .. على أيامنا ..

ويَّ .. على أحبابنا!!

نطوفُ كأرواح الموتى

بين المدافنِ ..

لسنا عظامًا تحت الثرى

ولسنا طيورًا كالثُريا!!

لم ينسَ عزُّوز شعراء مدينته الزبير خلال مسيرته الشعرية، فقد تمكن عزُّوز من جمع مجموعة لا بأس بها من نصوص الشاعر الزبيري المشهور (سالم الحميِّد)، من أفواه ما يردده الناس في المجالس العامة والأسواق، وحفظ بعضًا منها، وبدأ يستشهد بها في المناسبات، وسمع بالشاعر المشهور (محمود البريكان)، وعشق شعره وتتبع أثره وقصد مجلسه، وتذوق شعر

عبد الرحمن الرماح وعبد الرحمن القديمي وعدنان الشايجي، وسمع عزُّوز قصائد مجموعة من الشعراء الزبيريين الذين عاصرهم، من أمثال: عبد اللطيف الدلقان، عبد الله العبيَد، نجيب القضيب، عبد الله الخالد، داود الغنام، عبد العالي الجيعان، أحمد المُلَّاة، يوسف المُلَّا، توفيق الفضيلي، سعد الحميد، يوسف الهزاع، وعرف الطريق إلى المُوحيَّات ومؤسسها عبد الرزاق المدرَّس (المُوح)، الذي لا يعلم أحد من حوله رواية ثابتة عن سبب تسميته بـ (المُوح)، وقد اقترن اسمه باسم عائلة خواله (الفداغ)، وعزُّوز يعيش مأساته نفسها في نسبه لخوله؛ فالكثير ينسبون المُوح لخواله بدلًا من أهله ..

استطاع عزُّوز جمع موحيَّات عبد الرزاق الكثيرة في دفتر خاص، وكتب على جلدته الأمامية (المُوحيَّات) لشاعر السجع الزبيري، فكان عزُّوز يذهب لأماكن تواجده، ويجلس بقربه مع بعض الشباب، منتظرين من يأتي أو يمر بقربه فيُثير مياسم قريحته السجعيَّة، وعادة تجده في حراج الزبير، الواقع في الطرف الغربي من سوق الحزم، ملاصقًا لمنطقة (المراغة)، يجلس قرب دكان (العاشور) مصلح الدرجات الهوائية المشهور، أو تشاهده في منطقة (الزهيرية)، مُتقرفصًا قُرب دكان عيسى الرشيدان، ولقد نقلَ الجيل الذي عاصره إبداعات سجعه حفظًا وتدوينًا، بين الزيادة والنقصان، وتأثر بعض الشباب بفن أدبه المُوحيّ، بل إن بعضهم قد فاقه بنظم مُوحيَّاته، وهذا الرجل بحق يُعتبر المؤسس الحقيقي للسجع التُراثي في الزبير، رغم كونه من أولئك المهمشين اجتماعيًّا؛ فلقد عاش معظم حياته على هامش

عتبة المجتمع، ولم يلتفت من حوله إلى فنه وإبداعه .. كان من الفقراء المعوزين، ومع ذلك كان له بصمة وأثر في حياة مجتمعه الهادئة الوادعة، وكان له دور إيجابي، رغم القصور الطفيف في ميزان عقله كما يُقال، وله من الذكريات العطرة في مجتمعه، ما زالت تنبض حية في ذاكرة الجيل الذي عاصره .. بوجهه شيء بسيط من أثر مرض جدري الأطفال الذي تعرض له، يرتدي (بالطو) خفيفًا، سواء أكان في فصل الصيف أو في فصل الشتاء، يضع فوق رأسه طاقية بيضاء (مشخلة)، وعادة ما يضع الشماغ على كتفه الأيسر دائمًا .. المُوح شخصية طريفة ظريفة ولطيفة، طويل نحيل .. أخذ الدنيا ببساطةٍ ويسر .. كان يُرَفهْ عن نفسه وعن مجتمعه بكلام مسجوع جميل، فيه طرافة وخفة دم، ويزرع الابتسامة على وجوه النَّاس الكادحة .. هو من مواليد محلة الزهيرية .. يحمل معه صينية من المعدن، يضع فيها بضاعته البسيطة، مثل المسبحة والخرز والعملات القديمة وبعض الخواتم وأشياء أخرى .. ليس غرضه منها التكسب والتجارة، وإنما هدفه التسلية والضحك والفكاهة، ومن طرائفه الكثيرة، أنه في أحد المرات كان معه واوي صغير، فَفَلَت منه ذات مرة، فلحق به إلى أن أدركه في سكة (سد)، أي ليس لها مخرج، فأيقن (المُوح) أنه سيصيده لا محال، فقال له مخاطبًا إياه:

وين تولي؟ وين تروح؟

أنت الواوي وأنا المُوح

ثم انقض عليه وصاده ..

وفي أحد المرات كان جالسًا في البيت، فمرت عليهم جارتهم تسأله عن أمه، ففتح الباب وقال لها:

أهي أكلتْ وشبعتْ

چبعتْ عباتها وطلعتْ

كلمات مقتصرة مختصرة، وسجع له رنة في الأذن محببة .. كان في سوق الخضرة والوقت صيف وقيظ، والجو حار جدًّا، فمر على أحدهم وهو يتأفف من شدة الحر، جالسًا على الأرض، فقال له (المُوح):

خذ لك مهفهْ

من وراها لفهْ

وبما أنه إنسان فقير وعلى قد حاله، يستثير عطف كثير ممن حوله، وهو إنسان مسالم لا يتعدى على أحد أبدًا .. ففي أحد المرات، وبعد صلاة المغرب يذهب الناس لشراء الخبز من أحد المخابز الكثيرة التي تنتشر في الزبير، ولكونه لا دخل له ثابتًا، فكان صاحب المخبز يعطيه رغيفًا أو رغيفين، فيقف بعيدًا عن الطابور؛ كي لا يضايق الذين يشترون، فلفت نظر الخباز، فقال له:

- يا المُوح گرب

فرد عليه (المُوح) ببداهته:

يقول: گربْ گربْ

يا معود خاف أخربْ

أي أنه كان يخشى أن يخرب على المشترين في الطابور ..

***

ابن رواف

كلما تذكر عزُّوز قصة حلم صديقه سليمان الذي رواه له عدة مرات قبل وقوع أحداثه، وشاهده حقيقة ماثلة أمام عينه عندما زاره في بغداد، زاد من عزم إصراره على تحقيق حلمه، ورفعَ من كفاءة بحثه عن هذا الجَاخُور المجهول المكان، رغم انشغاله في آخر سنة بالجامعة، وهو يشاهد حماس وهمَّة بعض الطلبة الذين بدأوا في الاستعداد لمراسم حفلة التخرج وحفل الوداع .. قرأ في عيون زملائه من الطلاب والطالبات كلامًا حائرًا، لم تتمكن من بوحه أمام الآخرين، وبعضٌ من هذا الكلام لم يستكمل مشواره .. لم تستوعب عيون الخريجين والخريجات هذا الواقع الذي يُعلن عن نفسه بقوةٍ .. لم تتمكن من نبش أسراره، فبقي مكتنزًا خلف المقلات يُخفي أنفاسه وآهاته وحسراته .. لا تتمكن جرأة تلك العيون من الجهر به وإعلانه، كلٌ منهم يُمني نفسه بأنها سنته الأولى في الجامعة، كلٌ من الجنسين يحمل هموم المستقبل المجهولة أيامه، علاقة أربع سنوات أو أكثر ليست بالأمر الهين والسهل على زُملاء الجامعة، وتذكر قول أحد شعراء جامعته:

يـــــا جامعـــــة يـــــا أم العِـــــشگْ
صـــــار العِلـــــمْ بيـــــچ ينعـــــشگْ
وإلـــــ مـــــا يحـــــبْ أول ســـــنهْ
شتـــــــــلاته بالثـــــــاني تطـــــــگْ

أيام الجامعة لن تتكرر في حياة الإنسان، رغم ما يواجه فيها من صعوبات ومشقة، والفرص تأتي كالطيور المهاجرة، إن لم يتمكن منها الإنسان ويضعها في قفصه الخاص، فإنها سترحل عنه .. أربع سنوات انقضت بلمحة بصر؛ بعضهم ينتظره مشروع السفر وعذاب غربته، وآخرون يفكرون بشد الرحال والعودة لأرض الوطن، وآخرون تنتظرهم الخدمة العسكرية بثيابها الرثة، والغريب بأن آخرين يُفكرون في إعادة السنة الأخيرة سنوات أخرى، ولا يرغب في لبس قبعة تخرجه، وأهل عزُّوز في (الدمام) لا زالوا يُلحون عليه بضرورة المجيء للسعودية، والعمل في شركة أرامكو. ومما يزيد من همته ويرفع في رصيد بقائه بالزبير هو تحقيق حُلم كنزه المقتنع بوجوده، فلديه ثقة تامة بأن بعض الأحلام صادقة في الرؤية، خصوصًا عندما تتكرر بالتفاصيل نفسها، وقد سمع كثيرًا عن أحلام تحققت لأصحابها فيما بعد، وما زالت شخصية (ابن رواف) وحلمه في كنزه، تستعيد نشاط أحداثها في حياته وحياة مجتمعه .. قصةٌ تاريخية تناقلتها الأجيال في أكثر من رواية، عن حلم بن رواف، وتواترها بشكل غير طبيعي في المجتمع قد يعني شيئًا من صحة الخبر وتفاصيل الحدث،

رغم أن كل رواياتها حدثنا جدي فيما يرويه عن أبيه، أو سمعتُ من أبي فيما يرويه عن جدي، وجهان لعملة واحدة، كل الروايات بحاجة لتحقيق في مسألة عن من سمع هذا الجد الفذ، وابن رواف هذا يقول عنه أهل الزبير: كان حمَّارًا، قَدِم من منطقة (القصيم) لمدينة الزبير أيام القحط، ولم تُحدد الروايات من أي مدينة أتى، جاء أيام البحث عن العمل لسد رمق الحياة، وإرسال ما يمكن إرساله لأهله وخاصته كما يفعل غيره من المهاجرين للزبير في تلك الأيام، ومن أشهر الروايات عنه، يُقال إنه كان نائمًا عند مَربط حِمَاره في الزبير، فحلم عدة مرات أنه شاهد كنزًا مدفونًا في الشام، فعزم على الذهاب إليها، وهو يعلم بأن بعضًا من أهل القصيم المعروفين قد هاجروا للشام أيام رحلات العقيلات واستقروا فيها، فذهب لها بعد أن أوصى زوجته بالبقاء عند أهلها بالزبير، وفي طريقه قبل دخوله الشام مر على قرية ليتزود بشيء من الأكل بعد أن تمكن الجوع منه، فضيفه أحد الكرماء، وسأله عن سر قدومه للشام، فأخبره عن حلمه ولم يعلمه عن اسمه، فضحك منه كثيرًا، وقال له، أنا حلمت أكثر من مرة، بأن هنالك رجلٌ بثوب أبيض يأتي في منامي، فيُخبرني بكنزٍ لي في مربط حمار ابن رواف، ولم أصدق، ولن أصدق .. إنها أضغاث أحلام، لا تنقطع عنا زيارتها الكثيرة ..

فعاد قافلًا للزبير وبحث عند مكان مَربط حِمَاره، فوجد الكنز، فأغناه الله، وتصدق منه لبناء مسجد الرواف، القريب موقعه من سوق الجت،

وتعاقب على إمامته مجموعة من أئمة أهل الزبير، وكان آخرهم الشيخ إبراهيم المبيِّض، وهنالك رواية أخرى لا تقل شهرة عند أهل الزبير من هذه الرواية، تقول إن ابن رواف شاهد في حلمه، أن الكنز في بغداد، وعندما ذهب لبغداد لم يجد المكان المتطابق مع حلمه، ولكنه شاهد رجلًا من أهل بغداد الطيبين اهتم بأمره، وسأله عن قصة مجيئه لبغداد من الزبير، فأخبره عن قصة حلمه ولم يُخبره عن اسمه، فرد عليه البغدادي ببراءته وصراحته:

– أگولك يابْ، لُو الكنُوز واگفه على هيچ حلوم وَتَحَقق ما بِيها، چان هسه آني غني وتاجر، آني احْلَمِتْ أكثر من مرة بكَنِز بالزبير، وهاي الزبير الله وكيلك عمري كله ما طبيتها، شفت الكَنِز عند مربط حمار ابن رواف، عود ابن رواف هاذ من يطلع جنابه؟

فعاد أدراجه ابن رواف للزبير غير مصدق ما سمع من قول، ليجد الكنز عند مربط حِمَاره ..

***

جَاخُور عتيّة

بعد قناعة عزُّوز بتفسير (شمخي) لحلمه، قرر البحث عن أقرب جاخُور لسكنه؛ ظنًّا منه بأن مكان الكنز سيكون قريبًا من مكان حلمه، ويعرف جيدًا، أن في نهاية سكة عتيّة جَاخُور غنم لرجل اسمه حامد، كبير السن في منتصف عقده السابع، يعيش بعين واحدة منذ أن ولدته أمه، أما العين الأخرى فطغى على مقلتها لون بياض الحليب، فاختفى البؤبؤ خلف الستار الأبيض، فكان يُداري عورتها دائمًا بنظارة شمسيَّة، في الليل والنهار .. يرتزق من تربية الأغنام وتسمينها ثم بيعها، هو المعيل الوحيد لعائلته الصغيرة، المكونة من زوجته وثلاث بنات .. لم يرزقه الله من الأولاد رغم كثرة إلحاحه في الدعاء بأن تُنجب له زوجته ولدًا يُساعده في شيخوخته، كلما حملت زوجته بولدٍ سقط قبل إكمال نموه، وعزُّوز يعرفه جيدًا .. يُكنى باسم ابنته الكبيرة (شيخة)، بدأ بالتعرف عليه أكثر من ذي قبل رغم فارق العمر الكبير بينهما .. حاول بداية أن يُقدم له خدمات مجانية بدافع المساعدة والمعرفة، ومن باب حجة حملة التعاون مع الجيران ومساعدتهم تمكن عزُّوز من توطيد العلاقة مع أبي شيخة، فأنس حامدٌ

عزُّوزا، وتعود على مساعدته المجانية، فشكره على روح التعاون وحسن الخُلق معه، فاعتمد عليه بقضاء بعض أعماله اليوميَّة التي نخرت في حالته الصحية، فأوكل إليه مهمة شراء (الجت) يوميًّا، وإحضاره للجَاخُور بعربة دفع باليد، بعد أن كشف له أوراق سر طريقة تعامله مع بائعي (الجت) المشهورين في السوق (الوهيبي) و(الهذلول)؛ فهما المحلان الوحيدان في السوق اللذان يبيعان (جت) وبرسيم، وعرف منه بأنَّهما يتعاملان معه بالدين .. في نهاية الشهر يلتزم بسداد ما في ذمته من حساب لهما، عندما يتمكن حامد من بيع بعض خرافه أو صخوله التي يقوم بتكثيرها في جَاخُوره، ودائمًا تكون مبيعاته على معارفه وجيرانه وأهل المنطقة، وفي أغلب الأحيان تكون مثل هذه المبيعات إما عقيقة أو (ضيفة) عرس، أو أُضحية في أيام التشريق، فعادة أهل الزبير يشترون اللحم حسب الحاجة اليوميَّة وبالكيلو، ولحامد دخل آخر من جَاخُوره، فهو يبيع من منتجات أغنام الجَاخُور؛ من حليب ولبن يوميًّا لبعض أهالي (سكة عتيّة) وما جاورها من (السكيك) القريبة منها، ويبيع كذلك ما يجمعه من بيض تكرمه به دجاجاته الكثيرة بالجَاخُور ..

ومن خلال تواجد عزُّوز بالسوق، اكتشف بأن أغلب بائعي سوق الجت يشتغلون بدون رأس مال، فبعضهم لا يملك من رأس مال غير قيمة إيجار الدكان الذي يدفعه للمالك مقدمًا في بداية كل شهر ميلادي، وصَنْدَقة خشبيَّة يُسمِّيها أهل السوق (تبسيطة الدكان) الخارجية والداخلية، وبضعة

سلال، و(زبلان) مصنوعة من خوص النخيل فارغة، والميزان الذي يُعتبر العمود الفقري للدكان، وأوزانه الحديدية، سواء أكانت بوزن الحقة أو بالكيلو، أما بضاعتهم فهم يعتمدون فيها بعد الله على ثقة الدلالين المعروفين بالسوق و(علاويهم)، مثل علوة الضويلع، علوة العمران، علوة البلالي، علوة البريچان، علوة الليفة، وعلوة المعيوف .. كل هؤلاء الدلالين يبيعونهم منتجات المزارع و(القيعان) على الحساب في أول النهار، ويُقيِّدون ما اشتروا من بضاعة منهم بصفحات حسابهم بدفاترهم الكبيرة، وفي وقت الضحى العالي لليوم التالي يحمل كل دلال دفتره الضخم للمرور على أصحاب الدكاكين؛ لتحصيل قيمة مبيعاتهم من المدينين نقدًا، ويُعتبر كل دلال من هؤلاء وكيلًا عن مزارعين أو عن تُجار يُورِّدون منتجاتهم الزراعيَّة للسوق المحلية؛ من أجل بيعها فيه، وفي بعض الأحيان يقوم الدلالون بتمويل أصحاب المزارع بالسيولة في بداية الموسم، أو أحيانًا بمشاركتهم في محصول المزرعة، ونشاهد في سوق الجت ظاهرة ما يُسمى في علم المال والاقتصاد بـ (تدوير السيولة) .. في هذا السوق الصغير في مساحته والكبيرة في عمله ونشاطه التجاري، ومعانيه الاجتماعية السامية، وبعضٌ منهم وظف نشاطه التجاري بخدمات سيارة نقله الخاصة، التي يقودها لأسواق جملة الخضرة والفواكه بالبصرة والعشار .. يشتري من تلك الأسواق ما جادت به خيراتها بناءً على طلبات خاصة لبعض الدكاكين، خصوصًا الفواكه منها، والتي أهمها الگوجة والمشمش والتين والعنب

والتفاح الصغير (أبو فسيوة) والموز وغيرها، ومن أمثال هؤلاء السائقين الحميِّد والصلحان وغيرهما ..

***

ديم خزام

لأول مرة في حياته يدخل عزُّوز سوق الغنم الواقع في منطقة (ديم خزام) في غرب الزبير، برفقة جارهم حامد (أبو شيخة)، ليجد نفسه بين أصوات الغنم الحزينة التي لا تنقطع، على فراق أماكن علفها ورفاقها .. لم يكن يتصور قبل معرفته لهذا السوق أنَّ فيه مثل هذه السيولة الكبيرة التي تُدار بكل ثقة وأمان .. شاهد أنَّ معظم تعاملاتهم نقدية، وعرف طريقة تعامل أبي شيخة الكلاسيكية مع مُلاك الأغنام ومربيها، سواء مع الدلالين أو مع تجار عَربِ البادية القادمين من بر الناصرية والسماوة والعمارة، الذين يجلبون أغنامهم (السرحية) لسوق (ديم خزام) بين فترةٍ وأخرى، وعرف نوعية الأغنام والجيد منها، من نعيمي ونجدي عربي و(عواسي) الذي يأتون بها من شمال العراق، واستطاع أن يُميِّز بعضها عن بعض، وتمكن من معرفة تقدير أعمارها، من طلي (هرفي) وجذع وثني، وما هو الأفضل في الذبح، وعرف تقييم أثمانها - وهذا هو المهم - واكتسب خبرة كبيرة في توطين الغنم (السرحي) إلى غنم جَواخير مرابي، يأكل العلف الذي يُقدم له بدلًا من البحث عنه في المراعي، وتعرَّف على أسماء الدلالين المشهورين

المُؤثرين في سوق الغنم، واكتشف فن طريقة السماسرة الذين يشتغلون في السوق، بتدوير سيولتهم البسيطة، عن طريق سرعة دوران رأس المال المتاح لهم، ومن هذا السوق عرف أسماء أشهر أصحاب الجَواخير في الزبير وأماكن تكاثرها، ومن هؤلاء الذين يملكون الجَواخير في الزبير: الطيران، الشريدة، العوهلي، الضبيعي، الشنيفي، الخميس، المفوز، المزروع، وغيرهم الكثير .. بعض منهم من قام بربط عجول، وآخرون ربطوا الأغنام.

ومن خلال اختلاطه بأصحاب الجواخير وتُجار سوق الغنم، شاهد أن علف الجواخير يتكون من جت، برسيم، شعير، رويطة، باجلا منقوعة وغيرها، ويُعتبر الماء عنصرًا، مهم توفره في الجَاخُور.

فكر عزُّوز بالترشيد الاقتصادي لجَاخُور أبي شيخة، فأخبره بأن عليه شراء الشعير من البصرة بكميات تكفيه لمدة طويلة، بدلًا من شرائه أسبوعيًّا من السوق المحلي بتكلفة غالية الثمن، ثم نصحه بالذهاب لمناطق تربية الماشية والرعي، والشراء من أماكن مرعاها مباشرة بثمن أرخص بدلًا من انتظار مجيئهم للسوق ووقوعه تحت رحمة الدلالين وسماسرة السوق، الذين دائمًا يدفعون بأسعارها للغلاء يوميًّا، وتعرَّف عزُّوز على ابن سلمان، من أهل الزبير، من سكان منطقة براحة النقيب .. رجل طويل القامة، نحيل الجسم، أنيق المظهر، وعلى الرغم من تجاوزه الستين من العُمر فإن أمارات الوسامة لا زالت بادية على وجهه، ودود مع الجميع، طيب

القلب، سليم الطوية؛ لذا أحبه واحترمه الجميع .. يُعتبر من كبار تجار سوق الغنم في البصرة .. أقنعه عزُّوز أن يعمل معه في إدارة جواخير أغنامه، شريطة أن يكون عمله على فترتين؛ الفترة الأولى تبدأ من بعد صلاة الفجر وتستمر للساعة السابعة صباحًا، أما الفترة الثانية فتكون مسائية، وتبدأ من بعد صلاة العصر لغاية أذان العشاء، إضافة لعمله أيام الجُمع والعُطل الرسمية، وافق ابن سلمان على طلبه، رغم رفضه في بداية الأمر؛ لعدم حاجته لعامل مثله، وخصوصًا أنه طالب جامعي، وقريبًا سيكون تخرجه، ولديه من العمالة الكثيرة الذين يقومون بالواجبات الملقاة على عاتقهم على أتم وجه وبدون تقصير!! ولكن عزُّوزا - بذكائه الفطري ومعرفته لسر هذه المهنة - استطاع أن يشرح له أهمية توظيف أمثاله من المتعلمين، فمثل التاجر ابن سلمان بحاجة لمن يُساعده على إدارة حسابات هذه الأغنام الكثيرة المنتشرة بين جَواخيره المتعددة بطرق حديثة معاصرة؛ ليكون المنافس رقم واحد في سوق الغنم، وتأكد ابن سلمان من صحة كلام عزُّوز عندما سمع عن نشاط عزُّوز في السوق، وشاهد مصداقية تعامله مع أبي شيخة، وسمع عن إخلاصه لعمله في أثناء غياب أبي شيخة وحضوره، وبعد موافقته اشترط عزُّوز على ابن سلمان أن لا يخبر أحدًا بعمله لأسباب عائلية، وأن يكتم هذا الأمر سرًّا بينهما ..

طلب عزُّوز من خالته طيبة أن تُوقظه قبل أذان الفجر بربع ساعة، فاستبشرت خيرًا بهذه الهداية، وزغرد قلبها فرحًا بمثل هذه البشارة السارة، وفتحت جيب صدرها - كعادة الأمهات - سائلة الله سبحانه وتعالى أن يأتي اليوم ليهدي ابنها بدرًا، وقالت له:

- يصير خير وأبشر، الله يوفگك ويجعل دربك على طول خضر، ويسخَّر گلوب عباده لكما ..

فانطلقت مسرعةً لتشيع هذا الخبر، كعادتها في نقل الأخبار، وكأنها إذاعة صوت لندن؛ لتُذيع هذا الخبر السار في محطة استقبال خاله حمد، المُستلقي في فراشه، يعبث بالراديو الصغير المحفوظ داخل جلدته البنية، المرفوع (الإريل) لأقصى درجاته، الذي يحمله بين يديه، يُقلب في محطاته؛ بحثًا عن محطة مناسبة وواضحة لسماع آخر أخبار الجيش المصري، وبطولة العبور، فما كان منه من تعليق عند سماعه لهذه النشرة الموجزة من زوجته غير أن قال:

- الله الهادي .. الله الهادي يا طيُّوبة ..

وقبل أذان الفجر، انطلق عزُّوز لمسجد الخضيري القريب من بيت ابن سلمان، فدخله وجال ببصره ذات اليمين وذات الشمال فلم يرَ غير كبار السن، ممن يستهلك باقي رصيد حياته في العبادة والطاعة، فندم على هذا الإهمال والكسل الذي أصاب الشباب في عصره وهو أحدهم، لماذا هذه

الغفلة؟! فوقف بين يدي الله حياءً منه على هذا التقصير والتفريط، فكبر وصلى سنَّة الفجر، وفتح المصحف، وكانت ريشة النعام الكبيرة الحجم مركونة في صفحة 235 .. بداية سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فتركها حيثُ كانت في مكانها، منتظرة من وضعها في هذه المحطة، تنتظره بشوق، سيأتي ويتعقب أثرها وينقلها من صفحة لصفحة لآخر محطة في المصحف .. فاحتار عزُّوز من أين يبدأ في قراءته!! فليس له عهد بقراءة قريبة في المصحف كي يواصل مسيرته فيه؛ فمنذ رمضان السنة الماضية ليس له ورد فيه .. يذكر عهده مع المصحف في بعض الجُمع، التي عادةً ما يبدأ فيها بسورة الكهف ولم يتمكن من إكمالها بجُمعة في حياته، وتذكر عزُّوز أيام جدته گماشة، التي كانت لا تنام قبل أن تقرأ عشر صفحات كل ليلة من مصحفها الكبير، الذي عادة تطويه بقطعة قماش أخضر، ثم تنفثُ في كفيها بدعاءٍ كان لا يفقه منه شيئًا، وتمسح بما قطفت بين يديها من ثمرة الدعاء على وجهها ورأسها وباقي جسمها .. أما ما قرأه عزُّوز في أيام دراسته في المراحل الثلاث الأولى فكانت من ضمن المقررات الدراسية، الواجب عليه حفظها، وفهم تفسيرها؛ حتى يجتاز اختبارها بنجاح، ومن بعدها يتبخر ما حفظ من آيات، وما فهم من تفسير لها ..

أخيرًا قرر أن يبدأ من الفاتحة؛ كي يكون له هذا المشروع الجديد فاتحة خير وبركة على حياته؛ لعلها تكون صفحة جديدة مع الله، ورحلة عودة إلى

طريق الله سبحانه، وتوبة نصوحة لنفسه المقصر في حقها، فالعودة إلى الله بداية وقبل كل شيء، ثم رحلة موفقة بإذنه تعالى إلى كنزه المفقود ..

بعد تسليم الإمام وانقضاء الصلاة، أبصر ابن سلمان جالسًا خلف الإمام مباشرة، يُحرك براطمه بورده الصباحي، يُعدد بعظام أصابعه حساب التسبيحات والتحميدات والتكبيرات، بينه وبين نفسه – كعادته بعد كل فرض صلاة كورد أذكار – فرمقه ابن سلمان بابتسامة خفيفة؛ تشجيعًا له على حضوره جماعة المسجد، وحثًّا له على مجيئه للمسجد مبكرًا، فانطلقا سويًّا للجَاخُور الأول في منطقة براحة النقيب، فعرَّفه على العامل المشرف فيه، وأطلعه على مهام عمله بالجَاخُور ..

وفي تمام السابعة عاد لبيت خاله، فلبس الزي الموحد للطلاب مُتوجهًا لجامعته، ينهش فكره ويأكل قلبه فترة الدوام الثانية، فترة ما بعد العصر، فترة غروب الشمس التي تحدث عنها المفسر (شمخي) .. شغل همه هذا الكنز، رغم عضات جوع معدته الخالية التي شعر بألمها ..

***

سلفانا

لم يكن في جَاخُور أبي شيخة الصغير غرفة لها باب في الجهة الغربية، مشابهة للمواصفات التي ذكرها المفسر (شمخي) .. كان فيه شبه (صِرِّيفة) صغيرة، محاطة بشبك حديدي من جهاتها الأربع، لها باب يربطه بـ (سلك) من الخارج عادة، يحفظ في هذه (الصِرِّيفة) العلف؛ حماية من حرارة الشمس في الصيف، ووقاية من مطر الشتاء .. اقتطع جزءًا منها، وجعله مكانًا لعزل الأغنام المريضة أو الشرسة منها؛ لذا لم يكن هذا الجَاخُور محل هدف عزُّوز، وعليه البحث عن مكانٍ آخر؛ لذلك هو انتقل للعمل مع ابن سلمان؛ بحثًا عن جَاخُور فيه غرفة لها المواصفات نفسها التي ذكرها المفسر شمخي ..

لاحظت زوجة خاله (طيبة) تأخره المستمر بعد صلاة الفجر، واستعجاله في الذهاب للجامعة دون تناوله الفطور، فخافت عليه من براثن الشر الذي يتربص بالشباب في الليل والنهار .. خافت عليه أن يقع في سوء لا يعي خطورته، فسألت ابنها بدرًا عن سبب تأخره بعد صلاة الفجر للساعة السابعة يوميًّا، فذكر لها عدة تبريرات من صنع خياله عن

سبب تأخره، وهو على علم بالسبب، لكنها لم تقتنع بما قال لها ابنها، فعمدت لسؤال عزُّوز مباشرة عن سبب تأخره بعد صلاة الفجر، فبرر لها هو الآخر بأنه يلتقي مع بعض الشباب الذين يحفظون القرآن ويتدارسونه، ويقرأون في كتب السيرة النبوية المطهرة في المسجد حتى بعد شروق الشمس، فيؤدون صلاة الشروق، ثم ينصرفون لبيوتهم جميعًا، فلم تقتنع برده ولم يشفِ غليلها كذلك، فأخبرت خاله حمد، وكانت مترددة في ذلك؛ ظنًّا منها أنها سوف تكون وقيعة ووشاية بينه وبين خاله، الذي سيستدعيه ويستجوبه عن هذا الوضع، ثم تتوسع دائرة حدة الخلاف بينهما، وأن يُحسب في المستقبل مثل هذا الموقف عليها من قِبل الاثنين، كما حدثت تلك المشادة الكلامية بينهما في أحد الأيام، عندما رجع عزُّوز للبيت مع أذان الفجر دون الاستئذان من خاله، فقامت بإشاعة خبر تأخره لخاله؛ كعادتها بنقل ما هب ودب من أخبار في البيت، حتى أخبار أهلها وجيرانها تنقلها مباشرة له دون فلترة، بما فيها بعض الأخبار النسائية وعلاقاتهن مع أزواجهن؛ ظنًّا منها أنَّ ما تقوم به يُعتبر من الواجبات المقدسة في الحياة الزوجية، والمفروض أنَّ زوجها أول من يعلم عن كل شيء، وعن أي شيء يدور حولها وحوله ..

وهذا ما حدث بالفعل، فانفرد به خاله حمد، وسأله عن سبب تأخره اليومي بعد صلاة الفجر، وخصوصًا عندما علم عن مكوثهم في المسجد مع جماعة إسلامية، عن طريق مراسلة إذاعته الخاصة (طويبة) غير طيبة

الذكر كما يظنها عزُّوز، التي يعتقد أن اسمها لا يدل ولا يتوافق مع تصرفات طباعها أبدًا، فاستشعر خاله عظم مسؤوليته في المحافظة عليه وسرعة تنبيهه؛ لأنه مؤتمن عليه من قبل أهله، ويجب تحذيره لخطورة ما قد يقع فيه دون شعور منه، والكُل يتكلم بهمس عن خوف النظام الحاكم من مشاريع توظيف حلقات تحفيظ القرآن والدروس الشرعية لمهام حزبية إسلامية وغير إسلامية مدسوسة ومدعومة من قبل أعداء الأمة في الداخل والخارج، وخاله يسمع القصص الكثيرة من مرتادي قهوة الملَّا .. يسمع عن المداهمات القانونية وغير القانونية لأي تجمع شبابي، وخصوصًا من النوع الجامعي، حتى لو كانوا مجتمعين في ديوانية خاصة، ويلعبون فيها (جنجفة) فقط، فما بالك فيهم وهم يجتمعون في المسجد على مائدة حفظ القرآن وتفسيره؟!

فما كان من عزُّوز غير أن يفتح ملفه الخاص أمام خاله حمد ويكون صريحًا معه إلى أبعد الحدود؛ كي يطمئن عليه ويتعاون معه، وربما يُساعده، وكان على خاله حمد ضرورة سؤاله عن ما هو قادم عليه بعد تخرجه من الجامعة، ونيله درجة البكالوريوس في الاقتصاد، وعلى عزُّوز أن يُقرر الآن؛ إما البقاء في مدينة الزبير والعمل فيها، أو شد الرحال والسفر لأهله في السعودية، أو اختيار العمل في الكويت، كما فعل أقرأنه من الشباب، فابن خاله بديّر قد اختار العمل في دولة الكويت؛ لتحقيق هدفه المنشود بأن يكون مديرًا لبنك في يوم من الأيام، فوجد فرصة عمل مناسبة جدًّا في أحد

البنوك، أما أحمدوه ففضل الذهاب للسعودية، فأخذ زوجته وابنه، وسافروا بعد أسبوع من تخرجه من الجامعة، أما صديقهم سليمان فنُقل لقاعدة الشعيبة بمعرفة عقيد في الجيش من أهل أبي الخصيب؛ لأنه بعد حادثة مقتل (لمَّيعة) و(حمود) لم يتمكن من البقاء في بغداد .. لقد خاف على نفسه كثيرًا من هذه التصفيات الدموية، وينتظر بشوق يوم تسريحه من الخدمة العسكرية الإجبارية ..

أما حميِّد ابن خديجة بنت خالة أبيه سعود، صاحب العشق والهيام والغرام والرومانسيات في هذه المجموعة الخُماسية، الذي عرفَ قَصص الحُب من أفلام صالات دور السينمات، ومن كُتب الروايات المتبادلة بين الأصدقاء، الذي حاولَ محاكاة أنماطها في سوق البنات وبين الأثلات، وسمعَ من محطات همس الحب في مجتمعه، حكاوي كثيرة ذات الموجة القصيرة والموجة الطويلة عن الفتيات، تداولوها بحياءٍ وخوف من الآذان والعيون المتربصة لهم .. كانت حركاتهم محاطة بأسوار شاهقة الارتفاع .. لها أبوابها السرية، ومنافذها الخاصة؛ فمجتمعه ذكوري العُرف والطباع والتقاليد .. مجتمع يذكر أفراده أسماء الذكور بتفاخر في كل مكان، ويغض الطرف عن أسماء البنات والأمهات والجدات .. مجتمع يُعشش في عقليته عنكبوت وأد الأسماء، فهم لا يذكرون أسماءهن أمام الآخرين في أي محفل اجتماعي خارج محيط المحارم، بل حتى في بطاقة دعوة زواجهن الموجهة للرجال، لا يذكرون أسماءهن صراحةً كعريسات، ويكتفون بكتابة اسم

والد العروس المسبوق بكلمة (كريمة)، فأصبح المتزوجات في المجتمع كلهن كريمات ..

صام قلب حميِّد سنوات عن الحب، فلم يذق طعم موائده .. لم يكن يعلم أنهن كسلة فواكه مما لذ وطاب، ففطر قلبه في باحة الحرم الجامعي بعد صيام أرهق أيام شبابه بالآمال .. جرب حلاوته بحرية دون رقابة .. جرد قلبه عن ثياب السرية، عرفَ طرق خيره وتجنب منافذ شره .. عرفَ أساليب عزف آلاته وأنغام ألحانه .. لم يكن حديث عهد عندما صرعه حبها في أول جولة .. فتنه جمال محاسنها وحلو كلامها المعسول، فأصبح كمجنون ليلى، ينظمُ فيها شعرًا، ويسجعُ بحبها نثرًا، ويُردد اسمها في كل أرض يقف عليها .. لو تنتهي كل ذكريات فتياته، فعنفوان ذكرياتها لا ينتهي أبدًا، فذكرياتها سرمدية الصلاحيات، لو تنتحر كل قصص حبه عند شاطئ النسيان، فإن حب سلفانا لا يصرعه أي نسيان، سيبقى نصبُ ذلك الحب حاضرًا في ذاكرته، يُداهمُ زحمة أوقاته وهدوء خلواته، كلما هبت أعاصير أروقة الكلية .. قال لها يومًا:

- سلفانا .. كيف أنساكِ؟! كتبتُ الشعر لأني رأيتكِ تسبحين في سواحل بحوره، وتستحمين عند ضِفاف بحيرة قافيته .. عرفتُ الحب لأنك أنتِ من صنع لي شهوته، وخلط لي من عسله!!

قال لها يومًا:

كيف أنسى مد ماء شط العرب في عينيك وجزره؟! كيف أنسى هذان الزورقان الطائشان القادمان من منابع دجلة؟! كيف أنسى هذا الشَعر المصبوغ بماء الذهب؟! كيف؟! وكيف؟!

سلفانـــا: لكِ مني العهد كله ..

سلفانـــا: لكِ مني المحبة كلها، من أقصى صحراء سفوان حتى أعالي قريتكم في جبال زاخو!!

سلفانـــا: كم يوم بقي ثم نفترق؟ لا أعلم هل ألتقيكِ ثانية؟ تعلمين العوائق التي تقف بيني وبينكِ، تعلمين ليست بإرادتكِ، كذلك هي ليست بإرادتي، مثلما مجتمعكِ محافظ على موروثاتكم المسيحيِّة، فإن مجتمعي كذلك منغلق على ذاته الصحراويَّة، يرفض تخطي حواجز وأسوار العقلية القروية البدوية، هكذا قدرنا نحن الاثنين معًا، أن تكوني مسيحية وأكون مسلمًا .. سلفانـــا .. أعلم مثلما أنتِ تعلمين، بأن حُبنا بحرٌ بلا ميناء، وطن بلا هوية في هيئة الأمم المنحرفة، لا تُصلحه ندوات تقارب الأديان، وتغتاله التقاليد .. تلتهمه العادات .. تفترسه المعتقدات، هل تذكرين ما قاله لكِ أبوكِ؟ سلفانـــا .. عفوًا لم أقصد إيذاءك .. سلفانـــا ..

ثم وضعت يدها المرمرية على فمه الذي يزينه شنبٌ بالغ في كثافة شعره؛ إشارة منها على عدم رغبتها في سماع مزيد من هذا العتب الروحي .. ثم قالت له:

سوف أكون مخلصةً لك ما دمتُ على قيد الحياة، وفيّةً لحبك، لا أبالي بشعارات التقاليد المستهلكة، لا أبالي بطقوس تقارب الأديان أو فلسفة ضرورة تباعدها، لا أبالي غول العادات القابعة في أوعية المجتمع الضيقة، لا أبالي بإرهاصات التحذيرات الكثيرة التي تقذفها الكنائس في آذاننا باستمرار، بكونكَ مسلمًا وبكوني مسيحيَّة؛ فكل هذه التحديات لن تقف حاجزًا أمام حبي، كن من تكون في عقيدتك، فأنا أحبك بجنون ..

يُحاولُ حميِّد أن يتكلم فيقول: سلفانـــا .. لكنها تضع يدها على فمه مرة أخرى؛ آمرة إياه التزام الصمت، والإصغاء لحديث قلبها عن حبه .. اسمعني:

سأسافر لأهلي وأخبرهم بحبي الأبدي لك، وسوف أعود لنتدبر أمر عشّ المستقبل، فضغط على يدها وأسكتها بوسائله الخاصة كعادته قبل ختام كل لقاء، واختفيا بعيدًا عن الأنظار في غابة نخيل السيَّاب عبر الحدائق المكتظة بالطلبة ..

بعد تخرجهما بشهرين، عادت لمدينته الجاثمة فوق ثغر الصحراء تبحث عنه؛ تنفيذًا لوعدها الذي قطعته له، فلم تجده .. اتجهت لمنزل أقرب صديق له أحمد؛ لتسأل عنه، فلم تجد صديقه كذلك، سألت عن أي منهما، فلم تنتزع إجابة من أهل مدينته المحاصرة بطابع السرية .. التزم كل أصحابهم بالصمت وعدم المعرفة حيالها .. نفوا نفيًا قاطعًا بمعرفة أين هما .. انتابهم

هاجس الخوف منها بأن تكون مُرسلة من قبل استخبارات أمن الدولة أو الاستخبارات العامة، فلم يتمكنوا من إخبارها بأنها سافرا لوطنهما؛ للعمل هناك قبل شهر دون عودة مرة أخرى للزبير ..

وهكذا تتحقق سلفانا من صدق كلمة أمها العجوز، التي كانت دائمًا تُرددها عليها: بأنها تعيش حب مراهقة، حب أيام جامعة سرعان ما تنخفض درجة حرارته مع نهاية طقوس يوم تخرجهم.

***

الكنز المفقود

استحضر خاله حمد دوره كمربٍّ مسؤول لعزُّوز منذ نعومة أظفاره .. يُحاول دائمًا في منهج تربيته تقمص الدور الروحي لأبيه، في خوفه الشديد على حياته ومستقبله، فتعمد أن يلتقي معه منفردًا به في مجلس الديوان المعزول عن حرم المنزل وصخبه .. المكان المفضل لعزُّوز لكتابة واجباته المدرسية، الذي يُعتبر معتكف قراءاته الكثيرة .. جلس معه لمحاولة إقناعه بمفهوم واقع الحياة، وبأن الأحلام ليست كلها حقيقة كما يراها الإنسان في منامه، وأن معظمها أضغاث أحلام، لا تتحقق على أرض الواقع، مهما أُوتيت من قوة في تجسيد التفاصيل، ويجب أن لا تشغله مثل هذه الأحلام الليلية عن التفكير الجاد بمستقبله، وعليه أن يبدأ مشوار حياته بعد أن منَّ الله عليه بالتخرج من الجامعة، وحصل على الشهادة التي كان يتمناها، فالآن أبواب الرزق الكثيرة مفتوحة أمامه، لكن عزُّوزًا في وادٍ آخر عن ما يسمع من موعظة جادة؛ فلقد عرف الطريق إلى تجارة الغنم المربحة، وأخذت تجارة ابن سلمان معظم وقته وجهده، فوثَق به عندما شاهد نشاطه ووفاءه وإخلاصه في عمله، فخصص له نصيبًا من الصفقات التي يقوم

فيها بنفسه مباشرة؛ كعمولة تشجيعية له .. سافر معه إلى بادية الناصرية والعمارة وغيرهما؛ من أجل شراء كميات كبيرة من الأغنام، وعرف أن ابن سلمان يقوم بنقلها لمزارعه في كل من سفوان والعبدلي؛ فالحدود بين هاتين المنطقتين مفتوحة على بعض، والأرض بين الزبير والكويت ممتدة منذ بداية سفر التكوين لهما، من قبل ظهور قراطيس التقسيمات الاستعمارية لأقاليم المنطقة الخليجية، ولم يعرف حبر قلم خرائط الأوراق حدودهما الجغرافية والاجتماعية إلا بعد مجيء فكر المحتل المدعوم بقوة جيشه وآلته العسكرية للمنطقة؛ من أجل نهب خيرات المنطقة بأكملها؛ فلذا قام بتقسيم بقايا جسد الرجل المريض قبل موته، ومن بعد المستعمر جاء أبناء الجمهوريات الكرتونية كوريث شرعي في العراق، فعاثوا في الأرض الفساد، ومزقوا أبناء الأمة الواحدة بمسميات الأحزاب، وصدقوا بأنهم دُعاة حرية وديمقراطية واشتراكية، فترحم الناس على أيام المستعمر الإنكليزي، وتمنوا عودته ..

كسب عزُّوز خبرة كبيرة من قربه لابن سلمان، ليس في تجارة الأغنام فقط، بل لقد تجاوز مثل هذه المرحلة لمرحلة أخرى؛ فقد تمكن من معرفة عمليات بيع وشراء الجَواخير والمزارع والسمسرة فيهما .. فعرف مميزات المزارع التي تستحق الشراء، من حيث نوعية تربتها وطعم ماء بئرها الصالح للسقاية، وكمية منتجها في الموسم الواحد، ومن خلال تنقلات عزُّوز بين تجار الجَواخير والمزارع وسماسرة الماشية؛ من أجل إشرافه على

إدارة الصفقات التي تمت لابن سلمان، رأى مثل الجَاخُور الذي وصفه المفسر (شمخي) له، والذي يملكه (أبو غايب)، وأبو غايب رجلٌ من بادية (السماوة)، قدم للزبير للتجارة في الأغنام، ليس له أبناء، واقتنع بما قسمه الله له، فتعرَّف عزُّوز عليه، ووثق العلاقة به، وعرف بأنه يربط غنمه الخاص فيه .. يشتري غنم (هرفي) في أيام (الجلب)، عندما يأتي أصحاب الحلال من أهل البادية بأغنامهم لسوق الغنم بالزبير، ثم يقوم (أبو غايب) بتسمينها؛ من أجل بيعها لاحقًا في أيام الموسم، فهو لا يهتم بعملية مشاكل تكاثرها في الجَاخُور، وخلال فترة التسمين هذه يستأجر أبو غايب بعض الرُعيان من عَرب البادية، من ذوي الخبرة الجيدة؛ للإشراف عليها، وعندما يتم له بيعها في الموسم يقوم بتصفية حقوق الآخرين، مثل حساب الرعيان معه، ثم حساب حقوق الدائنين، ممن قام بتزويده بالعلف وغيره طيلة هذه الفترة، أمثال السويدان والنافع والمجيِّم والقضيِّب والوهيَّب وغيرهم، والمتواجدة محلاتهم في سوق الطعام، شمال سوق الحزم، قرب (علوة) النصَّار لبيع (القَصَب) و(البَواري) ..

فكر عزُّوز بطريقة لا تُثير حولها الشبهة للوصول لجَاخُور أبي غايب، بعد أن علم أنه فارغ من الغنم والعمال بعد موسم البيع، فعزُّوز هو الذي أشرف على بيع غنم أبي غايب لابن سلمان، فقام بشراء ثلاثة (فروخ) من نخل (البرحي)، جاءوا بها له من (الجنوبات) بناءً على توصيته، وذهب إلى أبي غايب في (قهوة الزواريع) التي تقع في ركن مميَّز عند مدخل شارع

الإبراهيم من جهته الغربية .. يرتادها ملاك المزارع ووكلاؤهم والعمال (الكعيبر)، الذين عادة يطلق عليهم أصحاب المزارع ووكلاؤهم (الصبْيان) أو (الكرويّة)، وهذا المكان يعج بالكعيبر في موسم الزراعة والبذار، وفي موسم الجني وحصاد المزروعات كذلك؛ من الطاطم والبصل والقرع والثوم والبطيخ المشهورة زراعته في الزبير، وفي هذا المكان يتم تمويل الوكلاء من قبل مُلاك المزراع لموسم جديد، أو (لبدع) بئر جديدة (رِكيِّة)، فيقوم الوكيل بكافة أعباء التجهيزات الضروريَّة؛ من بذور وغطاء للطماطم، وكذلك يقوم بتموين المزرعة (بماچلة) العُمال الكروية؛ من لحم رأس و(تمن شتال) و(جقاير لف)، وبالقرب من هذه القهوة يُوجد بعض الدكاكين التي تبيع كافة أصناف التبغ والشاي والسكر، وتُعتبر مثل هذه الأصناف من ضروريات المزارعين، وأكثر الوكلاء يقوم بشراء مثل هذه الحاجيات بالدين، على أن يكون السداد آجلًا، بعد جني المحصول وبيعه في السوق، فدخل عزُّوز القهوة وطلب من أبي غايب مفتاح جَاخُوره الفارغ من الغنم والرعيان، والواقع في غرب الدروازة؛ من أجل غرس النخلات الثلاثة له، والمقدمة كهدية بسيطة له بعد تمام صفقة بيع الغنم ..

أخذ معه أحد العمال الواقفين عند قهوة الحميِّد القريبة من قهوة الزواريع، ممن يُجيد زراعة فسائل النخيل، وخلال ساعة أنهى مهمته، وقام بسقاية النخلات، فحاسب العامل وبقي لوحده في الجَاخُور، وبدأ يحفر في المكان نفسه الذي وصفه له (شمخي)، قبل حلول وقت المغرب ومغيب

الشمس، وعثر على بقايا قماش متعفن، وقطعة حديد صدئة، وما عداهما لم يكن هنالك شيء غير التراب، فعاد أدراجه للقهوة وسلمَ أبا غايب مفتاحه وبارك له في النخلات، وأوصاه بالاهتمام بسقيهن بعد ثلاثة أيامٍ بماءٍ قليل، وقال له:

- لا تنسانا من عثوگ البرحيَّات لمن يحملن.

- أبشر، كل الخير بوجهك .. تستأهل كل خير عزُّوز ويجيلك للبيت إن شاء الله بوسعود ..

رجع للبيت فشاهد خاله ذاهبًا لمسجد الحنيف القريب من بيته، فأسرع بخطاه ليلحق به، فسلم عليه وقبل رأسه ومشى معه جنبًا لجنب للمسجد، وبعد صلاة المغرب وضع يدهُ بيد خاله، وقال له:

- ودي بسالفة وياك.

- خير إن شاء الله.

- ما فيه غير الخير إن شاء الله يا الخال.

- عساها مسألة خطبة وزواج عشان أفرِّح طيُّوبة؟

- لا خالي، تو الناس على المره وشگاها واليهال ودوختهم، وليش أتزوج أصلًا؟ ليش أيبب على نفسي المغثه والبلاوي؟ الحين أعيش حُر سعيد، أرجع للبيت متى بغيت، وأفعل ما أشتهي من دون أن يُحاسبني

أحد، بس بصراحة جاي لك عشان ودي أبيع بيت جدي عبد العزيز اللي بالحصي، إيجاره ما يسوى على گعدة فلوسه ..

– ولدي الزواج سنة الحياة، ولا تشذ عن النَّاس بتفكيرك، وبعدين ليش ودك تبيعه؟ خلاص ناوي تروح للسعودية؟

– لا .. ودي أتاجر بقيمة فلوسه بالغنم، بعد ثلاثة شهور عيد إضحيّه، وموسم مربح لتجار الغنم .. تعرف كل بيت بزبير يذبح أقل شي إضحيّه، فالأغنام بهذا الموسم عليها سوق قوي وتجارة ناجحة ومضمونة ..

– أخاف يضيعن منك الفلوس وتخسر الأكو والماكو يا ولد أخيِّتي ..

– لا يا الخال .. لا تخاف على ولد أختك سباچة، عارف السوق زين، يعرف شلون يدش وشلون يطلع منه، وخلنا ندور مشتري للبيت ..

وفعلًا تم له ما أراد من مخطط تجاري، فقد باع بيت جده الذي ورثه، لقد كان عزُّوز الوريث الوحيد للبيت بعد وفاة والده وجدته سارة، التي دُفنت في الدمام قبل عشر سنوات، ولم يتمكن من حضور جنازتها ولا دفنها، ولكنه اكتفى بصلاة الغائب عليها، والدعاء لها بأن يرحمها الله ويغفر لها ..

***

المشروع التجاري

قرر عزُّوز – في بداية مشروعه التجاري الصغير – استئجار جَاخُور جارهم أبي شيخة، الذي تقدم في العمر وأنهك جسمه المرض، وشعر بوهن الشيخوخة التي بدأت تدبُ في جسمه، التي تشبه رائحة الخشب الذي أفسدته رطوبة المستودع، وظهرت عليه أعراض مشاكله الصدرية؛ لإدمانه سجاير اللف بدون فلتر، ولم يتمكن من هجره رغم تحذيرات الأطباء الكثيرة له، فعرض عليه عزّوز مبلغًا مناسبًا للإيجار، فوافق أبو شيخة على عرضه المغري، شريطة أن يحتفظ بدجاجاته فيه، فلم يرفض عزُّوز له مثل هذا الشرط، وتعامل مع أحد الرعاة النشطين في سوق الغنم؛ للإشراف على غنمه التي سيقوم بجمعها قريبًا، وكلفه بواجبات علفها وتربيتها، مقابل أجر يدفعه له في نهاية كل شهر.

عزُّوز يعرف جيدًا طريقة تعامل أغلب تُجار الأغنام في السوق؛ فمنهم من يربط الغنم في جَواخيرهم، يشترون (هرافي) من الجلابة، ثم يُشرفون على تسمينها للمواسم كجذعان، وأهم المواسم لديهم وأكبرها سيولة

وحركة موسم عيد الأضحى، وعادة تأخذ فترة التسمين في جَواخيرهم ما بين الثلاثة شهور والأربعة شهور، وأصعب ما في هذه الفترة لديهم عملية تطبيع الغنم (السرحي) المتعود على الرعي في البر بمناطق العُشب، إلى أن يأكل العلف المُقدم له في الجواخير، والمكون عادة من الجت والحنطة والشعير والتمر الزهدي والنخالة، وكانوا يحرصون جدًّا أن لا تصيبها أمراض في هذه الفترة، ومعظم أصحاب الجَواخير يشترون أغنامهم من السوق المحلي، من عرب البادية الذين يجلبون أغنامهم لسوق (ديم خزام)، فأكثر الذين يربطون أغنامًا يطبقون نظرية مشهورة وشائعة بينهم (اشتر مجلوبًا ولا تشترِ مطلوبًا)، وقلة نادرة منهم من يذهب لبوادي المراعي نفسها ويشتري أغنامًا وعجولًا منها، كأمثال ابن سلمان وأبي غايب، واحتار عزُّوز بين هاتين الطريقتين المعروفتين، في أيهما يبدأ رغم محدودية سيولته، ولكنه تدارك الأمر، وفكر بطريقة تجارة اليهود - لعنهم الله - الذين يعتمدون فيها على سرعة تدوير أموالهم بأقل أرباح، ولذا عليه أن يكتشف طريقة يستطيع فيها تدوير ما يملك من سيولة دون تجميدها وانتظار لموسم الحج؛ كي يُحقق أرباحًا كبيرة، لا يُريد أن يربط سيولته بمرابط الغنم فقط لمدة ثلاثة شهور أو أربعة، إضافة إلى أنه سوف يتحمل تكاليف قيمة عَلفها اليومي؛ ولذا فإنه بدأ مشروعه الصغير بتدوير رأس ماله في السوق بشكل يومي، وأي مكسب يحققه من عملية البيع لا يتوانى فيها، يشتري من جلابة الغنم في أوقات المساء قبل حلول المغرب، وقبل

انصراف المتعاملين بالسوق، ويترك الراعي المتفق معه ليأخذ الأغنام للجَاخُور، وبعد صلاة الفجر يذهب بها مع الراعي لسوق الغنم، وفي بداية حركة السوق لا يتردد في بيعها أو بيع جزء كبير منها بأرباح غير مبالغ فيها .. تعاون مع كل من في سوق (المقصب)، ووفر لهم كل ما يحتاجون من الأغنام والعجول؛ بسبب قُرب جَاخُوره لسوقهم، المتفرع من جهة جنوب سوق الجت، قُرب مسجد البسَّام، يبيعهم ما يحتاجون، شريطة أن يدفعوا له في اليوم التالي ما يستحق عليهم دون تأخير، وفي نهاية ذي القعدة ذهب لبادية الناصرية، وزار (عباس بن فدعوس) أحد كبار موردي الأغنام للزبير .. يملك من المراعي الكثيرة في بادية الناصرية، واتفق معه على تنزيل الغنم في جَاخُوره الخاص بدلًا من تنزيلها مباشرة في سوق الغنم بالزبير دفعة واحدة، على أن يتم بيع جزء منها في بداية شهر ذي الحجة بكميات قليلة يوميًّا حسب حاجة السوق، سيدفع له عزُّوز مبلغًا كدفعة أولى على الحساب، كضمان للصفقة التي تمت بينهما، وقد تم له ما اتفقا عليه، فاستلم أول دفعة من الأغنام وساقها لجَاخُوره، وفي الدفعة الثانية والثالثة امتلأ الجَاخُور، فاضطر لاستئجار آخر، واتفق مع رعيان جُدد على الإشراف على هذه الأغنام الكثيرة، وفي أول يوم من ذي الحجة بدأ بتنزيل أول دفعة منها بالسعر الذي حدده هو، ولم يترك للسوق فرصة تحديده له، وكلما اقتربت أيام التشريق ارتفعت أسعارها، وكان صاحب هذه الأغنام (ابن فدعوس) قريبًا جدًّا من السوق، ويراقب من خلاله أولًا بأول،

ويُشاهد عزُّوز كيف يُحقق أرباحًا كبيرة في بيع أغنامه بالأسعار المتفق عليها مسبقًا، وفروقات الأسعار ستذهب لعزُّوز، وكان ذلك العام عليهم عام خير وبركة، فلم تُصب الأغنام بأي مرض، فحمد الله أن باع كل الأغنام قبل ليلة العيد، ودفع لمالكها حقه بالكامل ..

وفي ليلة العيد نفسها، طرق عليه الباب ابن سلمان، طالبًا مساعدته في جمع مئة رأس من الغنم، مطلوب منه تسليمها بعد يوم غد، بسعر السوق، بناء على طلب العقيد رضا شنشيل من قوات الحرس الجمهوري، ستأخذها عربات شحن عسكرية للجبهة الشرقية من العراق المتاخمة للحدود الإيرانية، التي عانت منها الأمة العربية بصورةٍ عامة، والحكومات العراقية بصورة خاصة؛ بسبب كثرة التحرشات الفارسية .. يُريد أفراد الوحدات العسكرية المرابطة هناك أن يُضحوا لشهدائهم، الذين قدموا أرواحهم فداءً لأرض الوطن، فما كان من عزُّوز إلا أن قال له: أبشر، وستكون العمولة على الرأس الواحد، وليس كالمعتاد على نسبة إجمالي المبلغ، كما هو متعارف عليه في الأيام العادية؛ لأنك تعلم الصعوبة والمشقة في جمع مثل هذه الكمية الكبيرة من الأغنام في أول يومٍ من أيام التشريق، فما كان من ابن سلمان غير الموافقة على شرطه ..

وفي ليلة العيد نفسها انطلق عزُّوز يطرق الأبواب على أصحاب الجَواخير الذين يعرفهم، يسألهم عن وجود أغنام لديهم، فبعضهم قد باع كل ما يملك في عصر يوم (الوقفة)، وآخرون بالغوا في أسعارهم، لكنه

تمكن من مساومتهم وشرائها منهم، وبعضهم نصحه أن يسأل أصحاب جَواخير مزارع سفوان؛ ففيها الكثير من الغنم .. نصحوه أن يذهب لأبي توفيق؛ فإنه يملك أكثر من مزرعة هناك، وفيها جَواخير لربط الأغنام. وأبو توفيق في منتصف الخمسينيات من عمره، قصير القامة، أسمر اللون، يميل للسمنة بقوةٍ، يعلو جسمه الخشن رأس ضخم ككتلة صلدة من فخار، غطى رقبته تقريبًا، حتى يظن الناظر له أول مرة بأنه بلا رقبة، ويتوسط هذا الرأس الضخم أنف كبير ذو منخرين عريضين وعينين صغيرتين، عزُّوز يعرفُ مكان بيته، الواقع في محلة الشمال، مقابل جامع مزعل باشا .. وفي نفس الليّلة ذهب إليه دون تأخير، طرق باب بيته الذي زيّن واجهته مصباح (مطري) يُضيء المنطقة القريبة جدًّا منه، فعرفَ من أهله، خلف الباب أنَّه نائمٌ مبكرًا استعدادًا لصلاة العيد، وبعد انقضاء صلاة العيد ذهب عزُّوز إلى بيته مباشرة، فهنأه بالعيد، وذكر له طلبه، فوعده خيرًا، وأخبره بأن أغنامه في أكثر من جَاخُور بمزارعهم في سفوان، وله شُركاء في هذه المزارع والأغنام، ووعده بأنَّه سيذهب معه بعد الضحى إلى هناك لجمعها من الجَواخير، وفعلًا في وقت الضحى العالي، عندما كانت الشمس في كبد السماء، وتحكم سيطرتها وترمي الأرض بأشعتها الحارة بلا موانع، ذهبا لمزارع سفوان، وشاهد عزُّوز جَواخير مزارعهم، والتي تحتوي على أغنام كثيرة، فعرف أن كثيرًا من مجتمعه يملكون المزارع، ويشتغلون في تجارة وتربية الأغنام ..

وفي أثناء جمعهم للأغنام في سفوان، شاهد عزُّوز جَاخُورًا تنطبق عليه مواصفات المفسر (شمخي) نفسها، فسأل أبا توفيق إن كانت هذه المزرعة ملكًا له، فأجابه:

– لا .. مزرعة ابن صلحان، شريكي بالغنم، له الثُّلثين في الأرباح ولي الثُّلث، عليه الجَاخُور والعلف ويدفع نصف قيمة الغنم، الحين هو بمكة، هالسَّنه أخذ حجَّه عن حرمه متوفيه من الربع ما حجَّتْ فرضها، وكانت وصيتها لأهلها بأيام مرضها الحجَّة لها، الله يرد ابن صلحان بالسلامه، بالفترة الأخيرة ابن صلحان صار يفكر بجديه بالعوده لديرة بن سعود، مثله مثل بعض الربع، لمن حسوا بمضايقات وفتنة الحروب المستعرة وفتنة الأحزاب السياسية .. بدوا يبيِّعون حلالهم وأملاكهم بيردون إلى السعوديه، ابن صلحان يفكر بيع المزرعه، ماي جليبها عمره ما نقص أكثر من ربع قرن، وما تغيَّر طعمه ولونه، والمكينه تشتغل ما شاء الله من يقول الله أكبر من وگت الفير لين أذان المغرب وما تقول (أح)، نوبات يريحونها ساعه ولا ساعتين بعز گوايل الگيظ، أرضها صالحة لكل المزروعات، وأفضل طماطه بالسوق يدش منها معروفة بطماطاها الأحمر المرتوي ماي، أما الگرع والبطيخ فحدث ولا حرج في إنتاجه ما شاء الله ..

– ابن صلحان عرضها للبيع؟

– لا بعده .. گايلي لمن يرجع من الحجَّة بيعرضها عند الدلال ابن سلمان..

- تتوقع چم تسوي؟

- مدري .. إذا لِكْ خاطر فيها بكلمه لِكْ لمن يرجع گبل ما يعرضها عند الدلال ..

- بس .. أخاف يتغلى بيعتها لمن يعرف لها خَطابه، وهذي عادة أكثر البياعه لمن يشوف بضاعته لها خطابه يطگ بريك ويهون ..

- لا تخاف خلها عليِّ، وأدبِّرها لِك إن شاء الله.

تمكن عزوز - من خلال خبرته بمعرفة أصحاب الجَواخير - من جمع الكمية المطلوبة من الغنم لابن سلمان خلال أربعة وعشرين ساعةً، ودفع بها لجَاخُوره، فوعده ابن سلمان أن يدفع له قيمتها بحسابه الشخصي في مصرف الرافدين فرع الزبير، والذي مقره مقابل جامع الدروازة من جهة الشرق، بعد انقضاء أيام عطلة العيد مباشرة ..

شَغل فكر عزُّوز شراء مزرعة ابن صلحان كثيرًا، بعد أن اختمرت فكرة الزراعة في عقله، وظنَّ أنَّ بشرائها سيضرب عصفورين بحجر واحد؛ فالأول منهما وهو المهم بالنسبة له، احتمال وجود كنزه المفقود الذي يبحث عنه فيها، فكل دلائل مواصفات جَاخُورها متطابقة مع وصف المفسر (شمخي) مئة بالمئة، والعصفور الثاني يُريد أن يدخل في تجارة الزراعة كتجربة جديدة له كباقي أصحاب الجَواخير الأخرى وتجار الغنم الذين أغلبهم يمتلكون مزارع في سفوان، ويقومون بربط الأغنام والعجول فيها..

كوابيسٌ وأحلامٌ وأمنياتٌ غالية جدًّا عليه، تعصف في ساعات ليّله ونهاره، تعجُّ في دماغه بتغريداتها المُزعجة، يفشل في إيجاد سبيل لطردها من سماء تفكيره، تندفع بقوةٍ كألم رأس يعوي بشدة دون مقدمات، لا تسكن مثل هذه الأمنيات ولا تهدأ أبدًا، إلا بمسكنات الأمل والرجاء، وقد طال تفقيس بيضها ..

يتمكن عزُّوز من شراء المزرعة من (ابن صلحان) بسعر مناسب جدًّا للطرفين، ويُحوِّل أوراق ملكيتها الرسمية لاسمه، فينطلق ليُخبر أقرب النَّاس له خاله حمد مثل هذا الخبر السار، فيفرح خاله فرحًا كبيرًا لسماع الخبر، ويغمر قلبه مزيج من مشاعر السعادة والفخر والاعتزاز بابن أخته، الذي تعب في تحمل مسؤولية تربيته ورعايته، ويشكر الله كثيرًا على أنَّ قيمة بيع بيتهم لم تضع في عواصف تربية الأغنام والعجول، والسعي في الليل والنهار خلف عمولتها وعلفها، ومشقة متابعة الرعيان أولًا بأول .. كان خاله أكثر ما يخشى على عزُّوز عدم الخبرة وحداثة التجربة بالنسبة له، ولكنه تأكد أنَّ ابن أخته يبحث عن شيءٍ يُميِّزه، لا يُريد أن يكون مثل آلاف الشباب بلا ملامح خاصة به، دون بصمة شخصية تُشير إليه .. فكان كل ما عليه في أيام ماضية مقاومة الحياة القاسية وظروفها الصعبة، وكان عليه أن يتحدى الموج العاتي الذي في طريقه؛ ليجد منفذه الخاص به، الذي يُميِّزه عن غيره، فهو خيار الرجال الخالدين في مجتمعاتهم، ممن يمتلكون المواهب المتفردة التي ترفعهم فوق مصائر الرجال العاديين ..

وفي يوم شرائه للمزرعة نفسه، وقبل وقت غروب الشمس، يطلب عزُّوز من أحد (صبيان) المزرعة حفر حفرة في جَاخُور مزرعته، بالمكان الذي وصفه له المفسر (شمخي) نفسه؛ بحجة زراعة نخلة في هذا المكان كذكرى له على شراء هذه المزرعة، فيُنفذ له (الصبي) أمره، رغم عدم قناعته بزراعة نخلة في هذا المكان من المزرعة، ولكن عزُّوزا لم يجد في الحفرة غير روث البقر وبقايا بعر الماشية، فيخرج من الجَاخُور تاركًا (صبيّه) لمهمة زراعة (فرخ) النخلة، ليبقى جنديًّا مجهولًا شاهدًا على خيبة أمله في كل الطموحات والأحلام التي كان يراها في منامه؛ ليبقى شاخصًا حيًّا يتحدث عن قوة عزم هذا الإنسان وتصميم إرادته على بلوغ هدفه، متحديًا كل الظروف الصعبة التي مر بها والعقبات الكثيرة التي اعترضت سبيله، مهما كانت طبيعتها وشراستها، سواء أكانت ظروفًا مادية أم معنوية، وهذا مما يُعزز ثقته بقدراته وإمكاناته على إيجاد فرص جديدة لإحياء أمله بتحقيق هذه الحلم ..

يعود عزُّوز قادمًا من مزرعته في سفوان لبيت خاله حمد في عتيِّة، ليجد خاله يتناول وجبة عشائه مع زوجته طيبة في باحة منزله، كعادته مبكرًا بعد صلاة العشاء مباشرة، فيجلس معهما ويأكل مما قدمت له خالته طيبة، فسأل عزُّوز خاله عن آخر أخبار ابنه بدر، التي انقطعت عنه أخباره خلال هذه الفترة الأخيرة، فيرد عليه:

– ليس المسؤول بأعلم من السائل.

– لا والله يا خالي، صارلي مده ماتجيني منه رسايل ولا مكالمات، شكل بديِّر غرگان بالشغل، الله يعينه على الغربة، فالغربة عسره وكريهه، كلما أفكر فيها أهون عن السفر، رغم إني عايش فيها هنيتن..

التفت عزُّوز إلى خالته طيبة التي سمع صوت بكائها عندما ذكر اسم أبنها الغائب عن عينها مدة من الزمن، ثم قارنها بالمرحومة والدته سباچة، هل يقول الله يرحمك (يا يمه؟)، أمه التي لا تعرف عينه ملامح أشباهها إلَّا من الصور النادرة .. لا يذكر نغمة صوتها .. لم يجد أثرًا لصوتها على شريط مسجل لينعم بسماعه، ولا يعلم أي شيءٍ عن تصرفاتها، وعن نوعية طبعها ومزاجها في الرضا والغضب، ولا عن طعم طبخها، ولم يشم في يوم من الأيام رائحة لثيابها، ولا يعرف كيف كان يُناديها أبوه؟ كيف يُصرِّفُ اسمها (سباچة) في رضاه منها وفي غضبه عليها؟ فماذا عساه أن يقول عزُّوز عن نفسه العزيزة لنفسه المنكسرة؟ فماذا يقول لهذه النفس التي لا تعرف عن أمه شيئًا غير قصة حبها الخالد العظيم لأبيه، التي بدأت تندرس آثارها في ذاكرة الأيام .. هذا الحب العفيف الذي أنجبه منهما؟ ماذا عساه أن يقول عن هذين الاثنين غير أنهما اختارا الموت في يومٍ واحدٍ وفي ساعة واحدة وفي مكان واحدٍ، لم يجرؤ أي منهما على مغادرة الحياة منفردًا تاركًا رفيق دربه ليلحق به في قطار قادم، فكان وداعهما للحياة في اللحظة نفسها ومن

المحطة نفسها .. لم يتنازل أحدهما عن صحبة الآخر حتى في لحظات الموت وسكراته .. لم يفكر أي منهما في مصير ابنهما الصغير، وتركاه كعهدة يتيمة بين كل من سارة وكماشة وطيبة وخاله حمد الذي أحسن تربيته، ينتظر البر والإحسان من هذه وتلك، أو يستجديه من أي عابرٍ سبيل في طريق حياته .. تركاه يعيش متمرغًا بغربة كاوية حارقة حتى النخاع، بين شَفقة المحسنين المتصدقين الذين ينتظرون الأجر والثواب من الله بسبب وجوده بينهم، وبين تهميش الحاسدين والحاقدين عليه .. اتفقا على تركه يعيش بين نظرات عطف قاتلة، استهلكت من رصيد حيائه في كل لحظة، ونظرات غيرة دفينة استنطقت الثأر والفتنة عليه بأبشع صورهما، فبقيت مثل هذه المشاعر مرتعًا خصبًا لذكرياته، تنبت كل حين، كالجمر تحرق ساعاته كلما هبت رياحها الخفيفة .. بقيت كمشاعر مختبئة في داخل حياته تُضيء أمامه شعلة الحقيقة كلما غفت الأيام على وسادة النسيان، ولكنه واقعٌ، عليه الاعتراف به، لا يمكن له أن يتجاهله أو أن يتكتم عليه أو أن يُحاول حجره صحيًّا عن مرافق مجتمعه العامة، كالأوبئة المرضية المعدية، وأن لا تُسيطر عليه السلبية والحزن والهرب من مواجهة هذا الواقع الذي يعيشه ..

قرر عزُّوز في الصباح أن يأخذ خاله معه لرؤية المزرعة التي اشتراها قبل ثلاثة أيام، وعند وصوله لها وبعد تجاوزه بوابتها الرئيسة وسيره ببطء في الطريق الترابي المؤدي لعمقها، الذي نمت على حافتيه بعض الزهور البرية الصفراء اللون ذات السيقان الرفيعة، شاهد خاله يُبعد النظارة الشمسية

عن عينيه ويُغطي كل وجهه بيديه، وسمع هزات صوت بكائه المدفون في صدره، فضغط بسرعةٍ على فرامل سيارته وتوقف، والتفت إلى خاله محدثًا إياه:

- سلامات .. شفيك خالي؟ سلامات!!

ففتح خاله حمد باب السيارة، واستقبل القِبلة، وخر ساجدًا لله وهو يبكي بصوتٍ مرتفع، فحضنه عزُّوز مستغربًا من بكائه وسجوده لله، فسأله بعد أن ساعده على القيام من الأرض:

- وش صار؟ ماذا عملت خالي؟ .. شفيك؟ سلامات!! لهذي الدرجة أنا عندك عزيز وغالي يا خالي؟

- لا .. المسألة أكبر من چذيه يا عزُّوز ..

- عيل شنو سالفة سجودك؟ شنو سالفة هلبچي؟

- عزُّوز .. هذا كنزك اللي حلمت فيه، هذي مزرعة جدك عبد العزيز الله يرحمه .. باعها يوم إفلاسه، واليوم تشتريها بفضل الله، صدق (شمخي) في تفسير حلمك!!

فخر عزُّوز ساجدًا لله، ممرغًا وجهه في تراب المزرعة، شاكرًا لله سبحانه وتعالى أن كشف كنزه المفقود .. لم يكن يظن بأن كنزه فوق الأرض وليس في باطنها كما اعتقد، وكان حلمه شقيًّا متعبًا وعسيرًا عليه في الوقت نفسه ..

لم يكن سهلًا عليه كشفه والوصول إليه .. استوعب عزُّوز درس هذا الحلم جيدًا، وعرف بأنَّ الإنسان عليه أن يسعى ويعمل بجدٍّ واجتهادٍ، وأنَّ لا يعيش على انتظار قطار الحياة في محطات الخيال والأحلام .. عرف بأنَّ الأيام حاملة في أحشائها رؤية الحقيقة .. كل ما في جوفها سوف يتفكك ويتصدع في المستقبل، ومن شقوق التصدعات سوف تنبت الحقائق للنَّاس جميعًا .. عرف أنَّ عليه أن لا يستعجل الأيام؛ فإنَّها قادمةٌ بخيرها وشرها لا محالة، وقد يُعوِّضه الله سبحانه ما فاته في ماضي حياته من خيرات ونِعم؛ فمثلما تأتي المصائب فجأة فإنَّ الأفراح ستأتي فجأة ودون مقدمات، فقد ذهبت أيام التعاسة وجاءت أيام السعادة ..

– كان اسمها مزرعة (الحمد لله) .. غرس جدك عبد العزيز في مدخلها لوحة تُشير لهذا الاسم بوضوح، فاحرص على كتابة لوحة بهذا الاسم، واغرسها من جديد في مدخلها يا عزُّوز .. قال له خاله ..

– أبشر يا الخال، ومن اليوم اسمها مزرعة (الحمد لله) ..

والحمد لله

أن تمت هذه الرواية

في 2015/05/05م

***

الفهرس

الإهداء 5
تفسير الأحلام 7
المُلَّا إبراهيم 13
سوق الهنود بالعشار 23
مفسر الأحلام (شمخي) 31
العقل المسكون 39
الحصي (الحُسِيّ) 51
الأهوار 55
مزرعة (الحمد لله) 57
مخفر شرطة العديلية 63
وسقط الهدب 71
سباچة 75
منطقة الروضة 85
سفوان 89
النساة (التوحّم) 95
الخطوط الجوية الكويتية 101

المطلاع 107
مستشفى الصباح 113
عتيِّة 121
روضة الأطفال 127
طيبة 137
المُصور آرام 141
الخميسية 145
الخَرَابَة 151
الخاكي 157
الهوايات 165
نيروز 171
المُوحيَّات 179
ابن رواف 189
جَاخُور عتيّة 193
ديم خزام 197
سلفانا 203
الكنز المفقود 211
المشروع التجاري 217
الفهرس 231

***